هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

اللسانيات العربية
Allisaniyat Al Arabiyah
مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز الملك
عبدالله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية
العدد ٧ شوال ١٤٣٩هـ - يوليو ٢٠١٨ م

- ترجمة المصطلح وتوطين اللسانيات.

- من أزمة فهم اللسانيات إلى أزمة فهم التراث..

- البعد التفاعليّ في الكتابة الأكاديميّة من خلال ظاهرة التأدّب اللّغويّ.

- أنظمة الكتابة: النظرية وإشكالية التصنيف.

- اللسانيات التطبيقية وسؤال التخصص.

- منهج جديد في علم الدلالة الصرفي: الأفعال المزيدة نموذجا.

- مراجعة كتاب: المصطلحات المفاتيح في اكتساب اللغة الثانية.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

البعد التفاعليّ في الكتابة الأكاديميّة من خلال ظاهرة التأدّب اللّغويّ

أ د. حاتم عبيد (*)

ملخّص البحث:

يسعى هذا البحث إلى الكشف عمّا في الكتابة الأكاديميّة من تفاعل بين الباحث والقارئ تشفّ عنه ظاهرة التأدّب اللّغويّ التي تتجلّى في جملة من التعابير والأساليب يستخدمُها الباحث، كي يُخفّفَ من ضراوة عدد من الأعمال اللّغويّة التي تحمل في طيّاتها تهديدا لماء وجه القارئ، ويبسُطَ مزاعمه وأفكاره على نحو يُظهره- في الآن ذاته- مُساهما في معارف الاختصاص الذي يكتب فيه، ومُتضامنا مع الجماعة الخطابيّة التي ينتمي إليها.

ويُخصّص المؤلّف قسما من بحثه لعرض محاولة مايرز الرائدة في استقدام منوال براون وليفنسون في التأدّب اللّغوي إلى الكتابة الأكاديميّة، ليخصّص الأقسام الموالية من البحث لدراسة كلٍّ من استراتيجيّات التأدّب الإيجابيّ والتأدّب السلبيّ في كتابات عدد من الجامعيّين العرب، عسى أن يقف- إلى جانب مظاهر التأدّب التي أشار إليها مايرز في دراسته- على وجوه واستخدامات أخرى توفّرها العربيّة لمن يحرّر بحوثه الأكاديميّة بها، حتّى يعقد علاقة جيّدة مع قرّائه ومع أهل الاختصاص الذين ينتمي إليهم.

الكلمات المفاتيح: كتابة أكاديميّة-تفاعل-جماعة خطابيّة-مزاعم-عمل لغويّ يهدّد ماء الوجه- التأدّب اللّغويّ-استراتيجيّات التأدّب الإيجابيّ- استراتيجيّات التأدّب السلبيّ.

*- المعهد العالي للفنون والحرف بصفاقس، جامعة صفاقس.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

Abstract:

The aim of the present paper is to reveal - through linguistic politeness - the interactional dimension in academic writing. The politeness is revealed by a number of expressions and styles used by the academic to alleviate the ferocity of a number of speech acts that carry some threat to the reader's face, and to express his ideas and assertions in a way that shows him as simply an academic who is trying to come with a scientific contribution, thus maintaining solidarity with his peers, i.e. the discursive community to which he belongs.

A section of this paper is dedicated to the presentation of Meyers' pioneering attempt to apply Brown and Levinson's politeness model to academic writing. The following sections are devoted to the study of the strategies of positive politeness and negative politeness in the writings of a number of Arab university graduates. With these two strategies, the academic writer performs two basic tasks: presenting a claim and contradicting former theories or beliefs.

KEYWORDS: academic writing, interaction, discourse community, claims, face threatening act, politeness, positive politeness strategies, negative politeness strategies.

1 - التأدّب مدخلا إلى دراسة التفاعل في الكتابة الأكاديميّة:

نروم في هذا البحث أن نكشف عن بعد مهمّ في الكتابة الأكاديميّة يتمثّل في ذلك التفاعل الجاري صلب الكتابة بين المؤلّف والقارئ والمتمثّل أساسا في سعي الطرف الأوّل إلى أن يفوز برضى الطرف الثاني، وأن يعزّز انتماءه إلى الجماعة الخطابيّة (discourse community). وهي غاية يستعمل الباحثون من أجل تحقيقها جملة

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

من استراتيجيّات التأدّب اللّغويّ التي تقوم-في جانب منها مهمّ-على التخفيف من ضراوة الأعمال اللّغويّة المحتوية على تهديد محتمل لماء وجه القارئ على وجه أخصّ والتي تُستخدم فيها جملة من التعابير لا يمكن أن نفهم علّة انتشارها في كتابات الجامعيّين إن لم نجعلها بسبيل من هذا البعد التفاعليّ الذي تتّسم به الكتابة الأكاديميّة ، والذي يكشف التأدّب اللّغويّ عن جانب منه غير قليل، والذي لا بدّ لكي ندرك أهمّيته أن نستحضر تلك الحيرة التي يحياها الباحث عندما يُلفي نفسه مدعوّا إلى أن يبسط جملة من الادعاءات والمزاعم (claims) حتّى يُثبت وجوده في بحثه ويبرز إضافته إلى المجال الذي يكتب فيه من جهة، وإلى أن يستحضر-في تواضع-جهود غيره من داخل الاختصاص ويضع في حسبانه القرّاء المعنيّين ببحثه، حتّى يفوز بثقتهم ويكسب رضاهم من جهة أخرى. ولعلّ أحسن ما يعبّر عن هذه الحيرة ما جاء على لسان أحد الباحثين، وهو يقلّب النظر في ما كتبه المعاصرون حول فنّ الخبر من دراسات:

«إنّ المتصدّي لدراسة الخبر في الأدب العربيّ القديم، ليجد نفسه في صميم الحيرة، إن هو أراد أن يقف على ما أسهم به الباحثون المعاصرون من جهد، لكشف الغطاء عن مقوّمات الخبر وخصائصه. فلا يَسلم له القول بأنّ هؤلاء المعاصرين قد غفلوا عنه وأهملوه إهمالا. ولا يجوز له القول بأنّهم استوفوه بحثا وقتلوه يقينا» (القاضي، 1998: 91).

وليس من باب المبالغة القول بأنّ الاهتداء إلى التعبير عن المزاعم والآراء الشخصيّة تعبيرا مناسبا، يُعدّ من أبرز التحدّيات التي تُواجه الباحثين المبتدئين، ومن أهمّ العوامل الحاسمة في أن يفوز البحث برضاء لجان القراءة والتحكيم المعتمدة من لدن المجلّات المحكّمة. فأوّل ما يحتاج إليه الباحث المبتدئ، أن يُتقن نوعا من البلاغة يتعلّق بالطرائق التي تُعتمد في تمثيل المعارف تمثيلا لغويّا، حتّى يُحكم صياغة الادّعاءات والمزاعم في الحقل المعرفيّ الذي يكتب فيه، ولكي يرفع واحدا من أبرز التحدّيات التي تُواجهه في كتابة المقالات العلميّة، ومن ثمّ لكي يتمكّن من بناء صورة جذّابة تجعله يحظى-من لدن أهل الاختصاص وداخل الجماعة الخطابيّة-بالاحترام والتصديق. فالكتابة الأكاديميّة-من هذا المنظور- صناعة بلاغيّة تكشف-من جملة

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

ما تكشف عنه–حرصا مستمرّا من الباحثين على أن يتحقّق في كتاباتهم ضرب من التوازن بين مزاعم ووقائع يعبّرون عنها من جهة، وتفاعل اجتماعيّ يسعون إلى إقامته مع القارئ من جهة أخرى. فعرض الأفكار كثيرا ما يمتزج في الكتابة الأكاديميّة بالأحكام الشخصيّة التي يطلقها المؤلّف وبالتفاعل مع القارئ الذي يتّجه إليه. ومن الصعب أن تتمّ عمليّة نقل الأفكار والمعلومات داخل الكتابة الأكاديميّة، من غير أن يستحضر المؤلّف القارئ وردود أفعاله الممكنة تجاه النصّ. ولعلّ ما ختم به أحمد السماوي مقدّمة كتابه «المقال الأدبيّ» أحسن مثال على حرص الباحث وسعيه الدؤوبين إلى أن يكسب رضا القارئ ويضمن فهمه لما يكتب وتفاعله مع ما ينشر. يقول الباحث: «ورغبة منّا في جعل مقروئيّة الكتاب متيسّرة، سعينا إلى تقديم كلّ باب وكلّ فصل وختمهما، عسى أن يكون التمهيد والختم مساعدين على الاستيعاب والفهم. أملُنا أن نوفّق في ذلك، وأن نجد لدى القارئ الكريم ما إليه يرتاح، وما عليه يحتجّ، وما عنه يستفسر، وما إليه يتطلّع ممّا هو أفضل» (السماوي، 2008:22)

نعم، هناك في الكتابة الأكاديميّة بعدٌ اجتماعيّ وتفاعليّ لا يمكن إنكاره. والفكرة–مهما كانت طريفة وجديدة–لا حول لها ولا قوّة، إلاّ إذا استعان الباحث في تقديمها بقدر من البلاغة، على النحو الذي يجعلها مقبولة من لدن أفراد الجماعة الخطابيّة. وقوّة الادّعاء الذي يدّعيه الباحث لا يكفي أحيانا لكي يحظى مقاله بالنشر. وقد تفطّن سويلز إلى دقّة هذه المسألة وإلى ما يقتضيه التعبير–في مجال البحث العلميّ–عن الادّعاءات والمزاعم من حذر. فهو يرى أنّ قوّة الادّعاء الذي تدّعيه ستجعله في منتهى الأهمّية، وستجعله أيضا عرضة للخطر. ومن المرجّح كذلك أنّك حين تعبّر عن فكرة مبتذلة لن تستقطب الأنظار. ولكنّك ستكون في مأمن من الخطر والانتقادات، لأنّ فكرتك لن تحمل في طيّاتها تهديدا للأفكار السائدة. وفي ذلك دليل على أنّ الادّعاء في العلوم والمعارف عمل يستبطن صراعا (Swales, 1990: 190). فأنتَ لا تستطيع أن تدّعي في العلم معرفة من غير أن تنال من معارف غيرك وتُبرز ما يعتورها من وهن أو تناقض. وأبواب الاختصاص لا تنفتح أمامك، إلاّ إذا أقمتَ الدليل على أنّ لك مزاعم جديدة تُبرّر بحثك، وتُكسبه قيمة وتُظهرك واحدا من المُسهمين في ذلك الحقل المعرفيّ (Hunston, 1993).

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

من هذا المنطلق، لم تعد الموضوعيّة والتجرّد صفتين كافيتين لكي تكون الكتابة الأكاديميّة ناجحة وناجعة. بل هناك أبعاد أخرى لها دور جليل في نجاح هذا النوع من الكتابة، لعلّ من أهمّها تلك العناصر التفاعليّة التي اعتدّ بها هايلند ورآها تكمّل المحتويات القضويّة (propositional content) المعبّر عنها في النصّ، والتي اعتبرها من قبيل الإشعار الذي يوجّهه المؤلّف-بين الحين والحين-إلى القارئ، حتّى ينتبه لآرائه ومواقفه (Hyland, 1997: 240). فوجود هذه العناصر التفاعليّة هو الذي يضخّ قدرا من الحيويّة في الأفكار التي يعبّر عنها المؤلّف، ومن ثمّ يجعل القارئ يتفاعل معها.

ويُعدّ التأدّب (politeness) واحدا من تلك العناصر التفاعليّة التي نادى مايرز (Myers) بضرورة التوقّف عندها حين ندرس الخطاب العلميّ، لما له من دور مهمّ في تحقيق قدر من التفاعل الاجتماعيّ بين المؤلّف والقارئ. فالرأي عند مايرز أنّ الباحث في سياق التواصل العلميّ ينجز عملين أساسيّين: فهو يبسط أفكارا ويعبّر عن مزاعم. وهو أيضا يعارض أفكارا سابقة ونظريّات سائدة. وكلّ من هذين العملين عُرضة لأن يحملها القارئ محمل السلوك الذي لا يخلو من مجازفة ومخاطرة. وهو ما يجعلهما من صنو تلك الأعمال التي تعتبر في مباحث التأدّب أعمالا تهدّد ماء الوجه والتي نجد في بعض التعابير المستخدمة من لدن الباحثين ما يشي بوعيهم بخطورتها وسعيهم في الآن ذاته إلى التقليل من حجم تلك الخطورة. ومن أمثلة ذلك الفكرة التي دافع عنها عبد القادر المهيري في غضون مقاله المخصّص ل»ابن خلدون وعلوم اللّسان» والتي خلص إليها في آخر المقال وسلك في صياغتها مسلكا حذرا يؤكّد وعيه بأنّه بصدد إنجاز عمل لغويّ لا يخلو من خطورة. يقول الباحث:

«وفي هذا المضمار يمكن أن نقول بدون مجازفة إنّ عبد الرحمن بن خلدون قد وفّق في رسم صورة تأليفيّة إجماليّة لكلّ علم من علوم اللّسان تفي بماهيته ومنهجه وتاريخ التأليف فيه» (المهيري، 1993 أ: 161).

وهذا الحذر الملازم للباحث عند بسط المزاعم لما يمكن أن تشكّله من خطر، يظهر بوضوح في الزعم الذي عبّر عنه عبد السلام المسدّي وانطلق منه في الفصل الأوّل من كتابه «مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات»، والذي مفاده دعوة إلى الوعي بقيمة

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

اللّسانيّات وضرورة إيلائها المنزلة التي تستحقّ، لأنّ «اكتشاف أسرار اللّغة هو الذي يُعيننا على اكتشاف أسرار الأشياء في الوجود». يقول المسدّي معقّبا على هذه الدعوة، حتّى يحصّنها ويجعلها في نجوة من نقد الناقدين وطعن الطاعنين:

«ليس ما نقوله جزافا. وليس هو من البدع. ولا هو من طفرات الذات الحالمة. وغُير مُجد لنا أن نظنّ بأنّه من تيه العقل إذا عقل. وإنّما هو تبصرة بالذي تُدركه النفس، ويعزّ عليها أن تضنّ به، لأنّه من خالص جوهر العلم» (المسدّي، 1997: 9).

ولمّا كان إتيان تلك الأعمال التي تهدّد ماء الوجه ممّا ليس منه بدّ في الكتابة الأكاديميّة، بات استعمال صيغ التأدّب أمرا ضروريّا واستراتيجيّة مطلوبة للتخفيف من الضرر الذي يمكن أن يترتّب على تلك الأعمال التي لا يمثّل بسط الأفكار والمزاعم سوى واحد منها إلى جانب أعمال أخرى كثيرة، شأن نقد آراء الباحثين الآخرين وتسمية الأشياء أو الظواهر بمصطلح جديد أو إيلاء الأهمّية في الدرس إلى ظاهرة دون أخرى. فليست استراتيجيّات التأدّب في نهاية الأمر إلاّ طريقة يسعى بها المؤلّف إلى إصلاح الإساءة التي يمكن أن تلحق بصورة الذات الإيجابيّة أو تنال من صورة القارئ بسبب إتيان عمل من تلك الأعمال.

2 - المزاعم في الكتابة الأكاديميّة شرٌّ لا بدّ منه وعملٌ لغويّ خطير لا بدّ من تهذيبه:

في ثنايا كلّ بحث دعوة يدّعيها الباحث أو زعم يزعمه. وتلك الدعوة وهذا الزعم يُقيمهما الباحث في الغالب على أنقاض دعوات سابقة، ويريد من ورائهما الاعتراض على تلك الدعوات أو بيان بطلانها. وهو ما يجعل من هذا العمل خطرا يهدّد جمهور الكتابة الأكاديميّة العريض، لما فيه من مطالبة مبطّنة بمنح الباحث ما يستحقّ مقابل الفكرة التي جاء بها، شأن الجوائز التي تمنح للباحثين اعترافا بقيمة أفكارهم. وهذا العمل يهدّد أيضا ماء وجه الجمهور الضيّق المتمثّل في ما يعرف بأهل الاختصاص. إذ ستفرض عليهم الفكرة الجديدة التي بسطها الباحث إكراهات كانوا في حِلٍّ منها، لما يترتّب عليها من تضييق في خيارات البحث المتاحة لهم.

ولا يخلو أمر تلك الادّعاءات التي يدّعيها الباحثون من توتّر مأتاه مفارقة طرفها الأوّل مقتضيات تدعو الباحث إلى أن يظلّ في حدود التوافقات الموجودة

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

داخل الاختصاص، وألاّ يخرج على إجماع أهله، حتّى يجد داخل الجماعة الخطابيّة آذانا تسمعه وعقولا تتقبّل فكرته. أمّا طرف المفارقة الثاني، ففكرة جديدة يأتي بها الباحث بدونها تنتفي مبرّرات نشر البحث، ويفقد عمل الباحث معناه وجدواه. وعلى قدر ما تتّسع دائرة الباحثين الذين تضطرّهم فكرة الباحث الجديدة إلى تعديل أطروحاتهم وممارساتهم البحثيّة، يزداد حجم الإساءة، ويتفاقم الخطر الذي يمكن أن ينجم عن ادّعاء تلك الفكرة.

أجل، يتوقّف جانب كبير من انتساب الباحث إلى الجماعة الخطابيّة على مدى إسهامه في المعارف التي يُنتجها الباحثون داخل الاختصاص. وليس من باب الصدفة أن يكون أهمّ مقياس يُعتمد في نشر المقالات والبحوث الجامعيّة هو جدّة ما يدّعيه الباحث من أفكار تصبح بعد مفاوضتها جزءا من المعارف السائدة والآراء التي ارتقت إلى مستوى الحقائق. والحقّ أنّ للدراسات التي ظهرت في الثمانينات من القرن العشرين والتي نحت منحى اجتماعيّا فضلا كبيرا في الكشف عن مثل هذه الأبعاد فيما ينتجه العلماء من معارف. وكان نهج الدارسين حينئذ يقوم في الأساس على النظر في كيفيّة بناء المعرفة العلميّة وفي بلاغة اللّغة التي يستعملها الباحثون في حقول علميّة مختلفة. وكان من أهمّ ما خلصوا إليه في هذا المجال، أنّ المقالات العلميّة لا تقوم على مجرّد تدوين الباحث للأنشطة التي أنجزها في المخبر والنتائج التي توصّل إليها، بقدر ما تنهض على عمليّة تحويل يصوغ فيها الباحث نتائج بحثه وخلاصاته في قضايا تُرتّب ترتيبا يجعلها مُقنعة، لأنّها جاءت في شكل وأسلوب لا يخرجان عن أفق انتظار الجماعة الخطابيّة. فإذا ما عرف البحث طريقه إلى النشر في المجلاّت المعروفة، كان ذلك دليلا على أنّ أفكار الباحث حازت اعتراف الجماعة الخطابيّة.

فالنصوص إذن هي الساحة التي يُبنى عليها صرحُ المعارف، وهي من حيث الأهمّية والاعتبار تأتي قبل الممارسة العلميّة. بل إنّ تلك النصوص-بموجب الأعراف والقواعد التي تصبح مُلزمة للباحثين-تضطلع بدور مهمّ في تشكيل معالم المعرفة العلميّة في طور الممارسة والتجريب، قبل أن يتمّ استقدام تلك المعرفة إلى حظيرة الكتابة. وهذا ما يجعل الكتابة الأكاديميّة ونشر المقالات العلميّة ضربا من السلوك الاجتماعيّ والبلاغيّ في آن معا (Myers, 1992 : 307).

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

وأهمّية الادّعاء في المعرفة من أهمّية الوظائف الخطابيّة التي ينهض بها في المقالات العلميّة. فأوّل ما يبدأ به الباحث مقاله العلميّ الإشارة إلى وجود ثغرات في البحوث السابقة، حتّى يهيّئ الأسباب ويجد موطئ قدم للمزاعم التي سيبسطها في بحثه (Swales, 1990). وللمزاعم وظائف مهمّة، منها بناء جديد المعارف والحصول على موافقة الجماعة الخطابيّة واعترافها. وتلك المزاعم حين يتمّ التعبير عنها في مقدّمة المقال تضطلع بوظيفة تبريريّة وترويجيّة في آن معا: فهي تبرّر عمل الباحث وإقدامه على تحرير المقال، وهي أيضا ضرب من الإشهار بدونها لا يكون المقال مُغريا ومُثيرا (Samraj: 2002). والتعبير عن تلك المزاعم مثلما يرد في مقدّمة البحث، يأتي في خاتمته. وورود المزاعم في المقدّمة يكون في الغالب من أجل إثبات أهمّية الموضوع الذي يثيره الباحث وبيان غاية بحثه ورسم ملامح توجّه الباحث فيه. ومن أمثلة ذلك قول المهيري في التمهيد الذي قدّم به بحثه الدائر على كتاب سيبويه:

«والرأي عندنا أنّه يجدر بالباحث ألاّ يدرس هذه القضيّة بالاقتصار على عناصر خارجيّة فحسب. بل لعلّه يمكن أن يجد في النصّ-نصّ الكتاب-ما يساعد على تقدير مجهود سيبويه فيه. وغرضنا هنا أن نقترح بعض العناصر لطريقة قد تساعد بالاعتماد على نصّ الكتاب على تحديد دور سيبويه فيه» (المهيري، 1993 أ: 39).

أمّا التعبير عن تلك الادّعاءات في الخاتمة، فتكون الغاية منه-في الغالب-إبراز قيمة البحث ومكمن الطرافة فيه، حتّى يدرك القارئ حجم إضافة الباحث في الحقل المعرفيّ الذي يكتب فيه. ومثل ذلك هذا الكلام الذي ختم به طه حسين كتابه «في الأدب الجاهليّ» ولخّص فيه الزعم الذي قام عليه كتابه:

«وإذا لم يكن بدّ من أن نختم هذا السفر بجملة تلخّص رأينا، فنحن ننظر إلى الأدب الجاهليّ كما ينظر المؤرّخ إلى ما قبل التاريخ، ويتّخذ لدرسه الوسائل التي تتّخذ لدرس ما قبل التاريخ. فأمّا تاريخ الأدب حقّا، التاريخ الذي يمكن أن يدرس في ثقة واطمئنان وعلى أرض ثابتة لا تضطرب ولا تزول، فإنّما يبتدئ بالقرآن» (حسين: 1989: 332-333).

ومثل ذلك أيضا إنهاء عبد السلام المسدّي بحثه حول «اللّسانيّات وتعليم اللّغات» قائلا:

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

«كذا نزعم أنّ أيّ نظريّة في تعليم اللّغة العربيّة للناطقين بها ولغير الناطقين ستبقى ضعيفة المردود ما لم تنطلق من نظريّة تركيبيّة تتّخذ الجملة منطلقا لها ومصبّا لبحوثها. وفي هذا الذي نقرّره مكمن الإشكال المعرفيّ في علاقتنا بالظاهرة اللّغويّة وبالعلم الذي ينكبّ عليها. وهو مناط مقصدنا في هذا المقام» (المسدّي، 1997: 230).

3 - مايرز واستقدام منوال التأدّب إلى الكتابة الأكاديميّة:

لا يمكن أن ندرس التأدّب في الكتابة الأكاديميّة من غير أن نتوقّف قليلا عند دراسة إلى صاحبها يعود الفضل في الخروج بهذه الظاهرة اللّغويّة من دائرة الخطابات التي تقوم على المواجهة المباشرة إلى دائرة الكتابة التي تنقطع فيها الصلة المباشرة بين الكاتب والقارئ. نعم، لقد فتحت دراسة غراغ مايرز (Greg Myers) المنشورة عام 1989 تحت عنوان «تداوليّة التأدّب في المقالات العلميّة» أعْين الدارسين على نوع من التفاعل الجاري في كتابات الجامعيّين استعان مايرز في الكشف عنه باستلهام منوال التأدّب الذي وضع أسسه براون وليفنسون (نشير إليهما من هنا فصاعدا ب: ب&ل) في كتابهما الشهير الصادر عام 1987 تحت عنوان «التأدّب: جملة من الظواهر الكونيّة في الاستعمالات اللّغويّة» ولعلّه من أبرز ما قام عليه هذا المنوال مفهوم ماء الوجه (face) الذي يحيل على تلك الصورة التي يرغب كلّ فرد من أفراد المجتمع في أن يدّعيها لنفسه في أثناء التفاعلات القوليّة، ويحرص كلّ الحرص على تحصينها وعدم خدشها، ويستعمل من أجل هذه الغاية عددا كبيرا ومتنوّعا من الصيغ والتعابير التي تندرج في باب التأدّب ويُراد بها تهذيب عدد من الأعمال اللّغويّة التي قد يترتّب على إنجازها إلحاق الأذى بصورة المتكلّم أو بصورة شريكه في الكلام (راجع تقديما لهذا المنوال في: عبيد، 2014).

و جدير بأن نذكّر بأنّ لماء الوجه–وفق ب&ل– بعدا إيجابيّا وآخر سلبيّا. أمّا ماء الوجه الإيجابي، فيحيل على تلك الصورة الإيجابيّة للذات المتفاعلة التي تتمثّل في رغبة تلك الذات في أن تلقى القبول والاستحسان من لدن الآخرين. وأمّا ماء وجه الذات السلبيّ، فمداره على مجال يسعى الفرد إلى الاستئثار به والاستحواذ عليه، وعلى تلك الحرّية التي يريد أن يجدها في أثناء إنجاز الأعمال، وعلى تحرّره من القيود المفروضة عليه. وقد لاحظ ب&ل أنّ عددا من الأعمال التي يأتيها المتكلّمون بين

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

الحين والحين، في حاجة إلى التهذيب والتلطيف، لأنّها تمثّل بطبعها خطرا يهدّد ماء الوجه، شأن الأمر والطلب والنقد والنصيحة وإظهار الاختلاف. فوجود مثل هذه الأعمال وغيرها يتطلّب، إذن، اعتماد استراتيجيّات التأدّب الخمس التي ضبطها ب&ل والتي يختار المتكلّم إحداها في ضوء ثلاثة متغيّرات:

١ –المسافة الاجتماعيّة (D) الفاصلة بين المتكلّم (S) والسامع (H).

٢– سلطة المتكلّم (P) على السامع، ومدى قدرته على أن يفرض عليه إرادته.

٣– منزلة العمل الذي يهدّد ماء الوجه (R) ضمن سائر الأعمال التي تصنّفها الثقافة ضمن الأعمال التي فيها فرض وإكراه.

والحقّ أن منطلق بحث مايرز الرغبة في توسيع منوال ب&ل ، حتّى يستوعب نصوصا مكتوبة، ولا يظلّ مقتصرا على المحادثات الشفويّة. نعم، لقد استغرب مايرز–وهو يلقي نظرة عجلى على عدد مهمّ من الدراسات التي استعرضها ب&ل حول موضوع التأدّب والتي كُتبت على امتداد السنوات العشر التي سبقت كتابها– استغرب ألاّ يجد في تلك الدراسات بحثا يتناول التأدّب اللّغويّ في نصوص مكتوبة. وهو ما يوحي بقيام فجوة بين المحادثات والنصوص المكتوبة لم يجد مايرز من الدارسين مَن سعى إلى تجسيرها. فكان ذلك تحدّيا أراد مايرز أن يرفعه. وكان ذلك من الأسباب التي دفعته إلى أن يقيم الدليل على أنّ منوال ب&ل قادر على أن يفسّر لنا عددا من الأبنية والتراكيب التي نصادفها في النصوص المكتوبة ولاسيّما في الكتابة الأكاديميّة (نعتمد مقال مايرز في عرض الأفكار الواردة فيه عرضا تأليفيّا).

فكثير من الاستعمالات الشائعة في كتابات الجامعيّين (يبدو أنّ، في تقديري، إلى حدّ مّا) قد تبدو لنا من الزوائد التي يعسر علينا فهم وظائفها ودواعي استخدامها، إن نحن لم نجعلها بسبب من مفهوم ماء وجهيْ المؤلّف والقارئ اللّذين تأتي مثل تلك التعابير لحفظهما. فلتلك العبارات دور لا يخلو من أهمّيّة مفاده تلطيف الأعمال اللّغويّة التي ينجزها الباحث والتي من شأنها أن تمثّل خطرا يهدّد ماء وجه القارئ. ولا ينكر مايرز الفروق القائمة بين المحادثات التي تقوم على المواجهة والتفاعل المباشر، والنصوص المكتوبة التي لا يقف فيها المؤلّف أمام القارئ وجها لوجه والتي تجعلنا نسأل: وجْه مَنْ هذا الذي يكون عُرضة للتهديد في ثنايا النصوص المكتوبة؟

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

ولا ينكر مايرز أنّنا نواجه صعوبة حين نريد أن نحدّد على وجه الدقّة الأطراف التي هي بصدد التفاعل داخل النصوص المكتوبة، وأن نعرف على وجه التحديد المخاطَب الذي يتّجه إليه النصّ. ولكنّ عدم احتواء النصوص المكتوبة على متكلّم يتكلّم بصفة مباشرة وعلى سامع يتلقّى الرسالة ويتفاعل معها تفاعلا مباشرا، لا يبرّر في نظر مايرز تجريد تلك النصوص من البعد التفاعليّ، ولا يعني البتّة أنّ الصلة بين النصوص المكتوبة والمحادثات العفويّة منعدمة. فالرأي عند مايرز، أنّ الفرصة تظلّ متاحة، لكي يستقدم الباحث من الدراسات التداوليّة التي تتناول المحادثة رؤى وأفكارا يمكن أن يهتدي بها في تحليل النصوص المكتوبة. فحسْبُ الدارس أن تكون له معرفة بالسياقات الاجتماعيّة التي تكتنف النصّ المكتوب، ليغدو قادرا على أن يتعرّف إلى مختلف الأعمال اللّغويّة المنجزة فيه، شأنه في ذلك شأن من يدرس تلك الأعمال في محادثة يوميّة تجري في قرية من قرى الهند.

من هذا المنطلق، رأى مايرز أنّ دراسة التأدّب في النصوص المكتوبة من وجهة نظر تداوليّة أمر ممكن، وأنّ أوّل ما يمكن الإفادة منه في هذا المجال دراسة ب&ل الشهيرة حول التأدّب التي تعدّ جزءا من مشروع لغويّ سعى فيه المؤلّفان بالأساس إلى بيان ما في الاستعمالات اللّغويّة من مظاهر كونيّة تجلّت بوضوح في ما خلصت إليه تلك الدراسة–وهي تقتفي أثر التأدّب في ثلاث لغات مختلفة–من وجوه شبه لافتة في مستوى ما يستعمله المتكلّمون من طرائق واستراتيجيّات في التأدّب. وفي ذلك آية على أنّ تلك الاستراتيجيّات القاعديّة التي اكتشفها ب&ل ليست من أمر الثقافة، ولا من خصائص اللّغة، بل هي كونيّة تشترك فيها جميع اللّغات. بل يمكن– في نظر مايرز –أن نستدلّ على وجودها في النصوص المكتوبة بأمثلة عديدة تنضاف إلى تلك التي أتى بها ب&ل من التفاعلات القوليّة الشفويّة، وتقوم شاهدا على كونيّة تلك الاستراتيجيّات التأدّبية (في نقد كونيّة هذا المنوال راجع: حاتم عبيد، 2014: 144–149).

أجل، لا يشكّ مايرز في أنّ اقتفاء التأدّب في عدد من النصوص المكتوبة دليل آخر على اتّساع هذه الظاهرة اللّغويّة، وعلى أنّها تعبر الحدود وتخترق الثقافات. ولكنّ الذي كان يشغل مايرز ويعنيه بدرجة أولى كيف السبيل إلى أن يطوّع منوال ب&ل ليصبح أداة ناجعة تساعد على فهم ما يجري صلب النصوص المكتوبة من تفاعلات

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

بين المؤلّفين والقرّاء. وحتّى يُقيم مايرز الدليل على كفاءة هذا المنوال، آثر أن يختار من المسالك أصعبها، ومن النصوص أكثرها تجرّدا وخلوّا–في الظاهر–من كلّ بعد تفاعليّ. فبمثل تلك النصوص أراد مايرز أن تكون البداية، ويكون الاحتجاج على صدق دعواه. نعم، لم يشأ مايرز أن تكون النصوص التي يُجري عليها منوال ب&ل من طينة النصوص التي تُسلم قيادها للدارس بسهولة، بل اختار نوعا من الكتابة يُعرف بالكتابة الأكاديميّة، واصطفى من هذا النوع ما هو مُوغل في التجريد، مُصنّف في خانة ساد الظنُّ إلى عهد غير بعيد أنّ أبرز ما يميّز النصوص المدرجة فيها تمحّضها للوظيفة الإخباريّة وانقطاعها عن الذات التي تكتبها. نعني بذلك ستّة مقالات جامعيّة صادرة في مجلات محكّمة تنتمي إلى حقل علميّ دقيق، ألا وهو البيولوجيا الجزيئيّة (molecular biology).

وقد آثر مايرز–قبل أن يدرس التأدّب في تلك النصوص التي اختارها–أن يذلّل جملة من المصاعب الحائلة دون الهدف الذي رسمه. وكانت هويّة القارئ من أهمّ المصاعب التي تعترض سبيل من يروم تحليل مثل هذه النصوص من وجهة نظر تداوليّة. فنحن لسنا أمام سامع بعينه، مثلما هو الحال في التفاعلات القوليّة المباشرة، بل إزاء جمهور متنوّع. وقد رأى مايرز أنّ تذليل هذه الصعوبة، يكون بالكفّ عن البحث في النصّ عن قارئ حقيقيّ مقدود من لحم ودم، والتوجّه–بدل ذلك–إلى جملة من الخصائص التي يتّسم بها النصّ، والتي منها تُقدّ ملامح هذا القارئ، وتحدّد هويّته، والتي منها أيضا يمكن أن نعرف طبيعة العلاقة التي تقوم في ثنايا النصّ بين هذا القارئ والكاتب.

وتصوّر مايرز القارئ هذا التصوّر، قاده إلى أن يميّز داخل جمهور قرّاء المقالات العلميّة بين نوعين: فهناك دائرة واسعة من القرّاء تتكوّن من الجماعة العلميّة الواسعة التي يفترض أن تكون هي المقصودة بالتقرير البحثيّ المضمّن في المقال. وهناك دائرة ضيّقة تتمثّل في الجمهور المباشر الذي يتكوّن من أفراد الباحثين، ومن جماعات ضيّقة تشترك وصاحب المقال في الأعمال التي يقوم بها والتجارب التي يُنجزها. وقد عبّر مايرز عن هذين النوعين من القرّاء بمصطلحين استعارهما من أحد الدارسين: الجمهور العامّ (exoteric audience) الذي له اهتمام بالمشكلة التي يثيرها المقال، والجمهور الخاصّ (esoteric audience) الذي تعنيه من المقال بعض النتائج التي خلص إليها.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

وليس المؤلّف في هذه المقالات واحدا، بل هو متعدّد تعدّد الأطراف التي شاركت في البحث بطريقة أو بأخرى، كتلك التي أبدت ملاحظات حوله أو اقترحت إجراء تعديلات عليه، شأن التعليقات التي يبديها زملاء الباحث على إثر قراءة البحث، وهو لا يزال مسوّدة، والملاحظات التي يقدّمها المحكّمان اللّذان تقترحهما هيئة تحرير المجلّة لتقويم البحث والنظر في قيمته العلميّة. يضاف إلى ذلك ما يوجد صلب المقال من بحوث سابقة أحال عليها الباحث واستشهد بها. أمّا المؤلّف الذي يُظهره النصّ ويشكّل ملامحه والذي يهمّ مايرز أكثر من غيره، فهو مزدوج الملامح: مؤلّف ينهض بوظيفة الكاتب ويتّجه إلى القرّاء، ومؤلّف باحث جمهوره هم الباحثون.

ودراسة التفاعلات الجارية بين الكاتب والقرّاء في هذه النصوص غاية تتطلّب تصوّرا للعوامل الثقافيّة التي ترتبط بالخطاب العلميّ يقدر أن يفسّر لنا لماذا يمكن أن يعدّ عمل مثل إحالة الباحث على أعماله السابقة من الأعمال التي تهدّد ماء الوجه. من هذا المنطلق افترض مايرز أنّ هناك ثقافة فرعيّة صغرى داخل الثقافة الجامعة الكبرى تحكم إنتاج المقالات العلميّة وترويجها وتلقّيها، وأنّ هذه الثقافة الفرعيّة تتّسم بثلاثة عوامل مهمّة: أوّلها القول بوجود مسافة اجتماعيّة (D) كبيرة تفصل بين المتكلّم (S) والسامع (H)، وثانيها افتراض مفاده أن تكون الاختلافات في علاقات القوّة بين الأفراد طفيفة، وثالثها افتراض يقول بأنّ الجماعة برمّتها أقوى بكثير من أيّ فرد ينتمي إليها. واستناد مايرز إلى هذا التصوّر جعله يفترض ويقول بأنّ علاقة الباحث بغيره من الباحثين تقتضي قدرا من الاحترام غير كبير، أمّا علاقته بالجماعة الخطابيّة باعتبارها وحدة عضويّة وكائنا واحدا، فيفترض أن تكون من صنو العلاقات التي تقوم بين الخادم وسيّده، والتي تقوم بالأساس على إظهار التواضع أمام تلك الجماعة الخطابيّة.

وقد كان مايرز على وعي بأنّ العلاقات التي تظهر على سطح النصّ المطبوع غير تلك التي تنعقد بين الباحثين على أرض الواقع. فعلى صعيد الواقع هناك شبكة من العلاقات الودّية وضروب من التآزر بين الباحثين لا تقتضي أحيانا وجود مسافة اجتماعيّة كبيرة. فما من شكّ في أنّ الاختلاف في علاقات القوّة سيكون كبيرا بين أستاذ أحرز على جائزة نوبل وزميل له في رتبة أستاذ مساعد يدرّس معه في الجامعة نفسها. وأثر هذا الاختلاف يمكن أن نلمسه أيضا في التقارير التي يعدّها أعضاء

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

لجان المناقشة أو لجان قراءة البحوث والمقالات. ولكنّ مثل هذه الاختلافات في علاقات القوّة تزول، حين يتعلّق الأمر بخطاب منشور تقتضي أعراف الثقافة التي تحكمه أن يستوي الجميع في أمر واحد، ألا وهو الظهور في مظهر الخادم المتواضع والمتفاني في خدمة الاختصاص الذي ينتمي إليها الباحثون.

هذه جملة من ملامح أطراف التفاعل في الكتابة الأكاديميّة. أمّا جوهره فسعي دائم إلى صون ماء الوجه ممّا يمكن أن يهدّده من أعمال لا مناص للباحثين منها، لما لها من دور مهمّ في بناء التحالفات التي تُبنى بها المعرفة وتصبح بفضلها الأفكار مقبولة. فالمعارف في مجال البحث تتّخذ-أوّل ما تتّخذ-شكل مزاعم وآراء يبسطها الباحثون، فإذا وجدت القبول وحظيت بإجماع أفراد الجماعة الخطابيّة، أمست في عداد الحقائق. ومثلما يُضطرّ الأفراد في التفاعلات اليوميّة إلى إتيان أعمال لغويّة تهدّد ماء الوجه وتحتاج إلى ما يقلّل من ضراوتها، شأن السؤال والنقد والاعتذار، يتعرّض التفاعل في الكتابة الأكاديميّة إلى مخاطر جرّاء احتوائه على عدد من الأعمال اللّغوية التي يستعين الباحثون بجملة من الطرائق والأساليب من أجل تهذيبها. ولعلّ من أبرز تلك الأعمال وأخطرها المزاعم التي يقوم عليها كّل بحث في الأصل والمنطلق والتي بفضلها يُظهر الباحث إسهامه في المعرفة التي يكتب فيها ويعزّز انتسابه إلى الجماعة الخطابيّة التي ينتمي إليها.

وإذا كانت المقالات العلميّة التي اعتمدها مايرز في دراسته قد أسعفته بشواهد كثيرة تصلح لكي تكون أمثلة جيّدة على الأصناف التي استخرجها ب&ل من التفاعلات الشفويّة، فذلك لا يعني أنّ غاية مايرز لا تعدو مجرّد تقديم أدلّة أخرى على كونيّة استراتيجيّات التأدّب الخمس التي قام عليها منوال ب&ل. كلاّ، فهدف مايرز أبعد من ذلك. وهاجسه الأساسيّ في هذه الدراسة أن يفتح بصائر محلّلي الخطاب والمهتمّين بتعليم الطلاّب أصول الكتابة ا الأكاديميّة على ما في كتابات الجامعيّين من بُعد تفاعليّ يجب ألاّ تحجبه عنّا انعدام الصلة المباشرة بين الكاتب والقارئ في هذا النوع من الكتابة. والحقّ أنّ تعامل مايرز مع منوال ب&ل هذا التعامل الذي تغلب عليه روح التفاعل والذي يقدّم النصّ على المنهج، هو الذي جعله يعثر-بالإضافة إلى نماذج متوقّعة تُطابق طرائق التأدّب المذكورة في كتاب ب&ل-على أمثلة من التأدّب لا نجد لها في ذلك المنوال شبيها. وفي ذلك آية على أنّ «التأدّب ظاهرة اجتماعيّة قبل

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

أن تكون كونيّة، وأنّه من أمر الثقافة يتلوّن بخصائصها سواء في الأشكال التي يتأدّى بها وما يقترن بتلك الأشكال من معان متنوّعة، أو في ما يستخدمه المتكلّمون أثناء التفاعل من استراتيجيّات مختلفة» (عبيد، 2014: 148).

وما من شكّ عندنا في أنّ اقتفاء أثر التفاعل من خلال ظاهرة التأدّب في كتابات عدد من الجامعيّين العرب سيكشف لنا عن إمكانات أخرى في تصريف هذه الظاهرة من شأنها أن تُقيم لنا الدليل على أنّ في العربيّة طرائق في التأدّب تتجلّى من خلال تعابير واستخدامات وأبنية يستأثر بها الجامعيّون الذين يكتبون بهذه اللّغة دون غيرهم ممّن يحرّرون بحوثهم بلغات أخرى. وقد رأينا من المفيد أن نكتفي في تتبّع هذه الظاهرة باستراتيجيّتين مهمّتين من استراتيجيّات خمس قام عليها منوال ب&ل ، نعني بذلك استراتيجيّات التأدّب الإيجابيّ (Positive Politeness Strategies) واستراتيجيّات التأدّب السلبيّ (Negative Politeness Strategies). وتمثّل هاتان الاستراتيجيّتان نظامين في التأدّب من ثلاثة نظم جامعة خلص إليها و. سكولن ور. سكولن: نظام في التأدّب قائم على إظهار التبجيل والاحترام (Deference Politeness System)، ونظام في التأدّب قائم على إظهار التآزر (Solidarity Politeness System)، ونظام في التأدّب قائم على الهرميّة (Hierarchical Politeness). نعم، يهمّنا النظام الثاني القائم على إظهار الوحدة والتآزر. وهو الذي يعبّر عنه ب&ل بالتأدّب الإيجابيّ. وفيه تُطوى المسافة بين طرفي التفاعل، ليشعر كلّ واحد منهما بأنّه قريب من الآخر. ويهمّنا النظام الأوّل الوارد في منوال ب&ل تحت مصطلح التأدّب السلبيّ. وهو صنف من استراتيجيّات التأدّب التي تقوم على إظهار الاحترام والتبجيل والتي يُعدّ فيها طرفا التفاعل متساويين أو كالمتساويين. ولكنّ كلّ واحد منهما يضع مسافة في أثناء تفاعله مع الآخرين (Scollon & Scollon: 1995).

واضح إذن أن استراتيجيّات التأدّب الإيجابي تنهض بالأساس على ضرب من مشاركة المؤلّف القارئ رغباته، وعلى سعيه إلى الظهور في مظهر من لا يعترض على رغبات الباحثين المنافسين له ورغبات الجماعة الخطابيّة على وجه أخصّ (Myers, 1989: 7). أمّا التأدّب السلبيّ، فيتحقّق من خلال استراتيجيّات صغرى من أهمّ وظائفها أن تقذف في القارئ الشعور بالاطمئنان وتبدّد مخاوفه، لأنّها تُظهر

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

له المؤلّف طرفا متفهّما ومتضامنا لا يفرض على قارئه أشياء قد تُعارض رغباته وتجعله مكبّلا عند القيام بعدد من الأعمال لعلّ من أهمّها حرّية تأويل النصّ الذي يقرؤه. فوظيفة الصيغ المستعملة في التأدّب السلبيّ التخفيف من درجة التزام المؤلّف بصدق القضايا التي يبسطها والأفكار التي يعبّر عنها. ويمكن استنادا إلى ما أشار إليه مايرز أن نُعيد النظر في عدد من الظواهر والاستخدامات اللّغويّة التي أصبحت تصنّف ضمن أساليب الكتابة الأكاديميّة المتعارف عليها، شأن الملطّفات (hedging)، والأبنية المبهمة التي يُستعاض فيها عن إسناد الكلام إلى المتكلّم بإسناده إلى أطراف غير معيّنة (impersonal structures)- يمكن أن نعيد النظر فيها، ومن ثمّ أن نتأوّلها على أنّها من التأدّب السلبيّ. ويكون ذلك في السياقات التي يستعمل الباحث فيها تلك الأساليب في أثناء التعبير عن أفكاره وآرائه.

فاستعمال مثل هذه الطرائق اللّغويّة من شأنه أن يقدّم المزاعم التي يزعمها الباحث والتقارير التي يثبتها في صورة تُيسّر قبولها من لدن أهل الاختصاص وتؤمّن اندراجها في إطار البحوث السابقة. ومن شأنها أيضا أن تساعد الباحث على أن ينقد آراء غيره من الباحثين نقدا يتجنّب فيه المواجهة الصريحة. فبدل أن يبسط الباحث آراءه على القارئ في شكل إثباتات قاطعة وتقريرات جازمة ونهائيّة، يستعمل تلك الأساليب التي من شأنها أن تُظهر مزاعمه وأحكامه على أنّها مجرّد آراء مؤقّتة تنتظر من الجماعة الخطابية أن تتبنّاها ومن القارئ أن يتفاعل معها ويقبلها. وعوض أن يوجّه الباحث نقدا مباشر ولاذعا إلى آراء غيره من الباحثين، تراه يستعين بصيغ التأدّب كي يلطّف من حدّة النقود ويتجنّب المواجهة الصريحة.

4 - استراتيجيّات التأدّب الإيجابيّ في الكتابة الأكاديميّة: تعزيز وحدة الجماعة الخطابيّة

وهي جملة من الاستراتيجيّات التي يستعملها المتكلّم من أجل أن يُظهر أنّ هناك تقاربا بين اهتماماته واهتمامات سامعه. فكأنّ مدار الأمر ههنا على سعي المتكلّم إلى أن يشبع رغبة دفينة عند السامع-وعند كلّ إنسان-في أن يرى نفوس الآخرين تتوق إلى ما تتوق إليه نفسه. وقد لاحظ مايرز-استنادا إلى المقالات التي اعتمدها- أنّ المجال محدود في الكتابة الأكاديميّة، حين يتعلّق الأمر بإشباع المؤلّف رغبات

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

القارئ، وأنّنا حين نبحث عن تعابير واستعمالات لغويّة يستخدمها المؤلّفون ويعبّرون من خلالها عن استحسانهم رغبات القارئ، لا نكاد نعثر على ما نبحث عنه. وخلافا لذلك، فنحن لا نعدم في المحادثات اليوميّة متكلّما يتعاطف مع سامعه، ويُظهر الولع به، ويستحسن أفعاله، ويُبدي إعجابه بأشيائه، كأن تقول امرأة لجارتها: ما أجمل فستانك! ولكن حين نُيمّم وجهنا شطر الكتابة الأكاديميّة، يغدو الأمر–حسب مايرز–نادرا، إن لم يكن معدوما. فمايرز يستبعد على سبيل المثال أن يبدي الباحثون ملاحظات يمدحون فيها مواهب غيرهم من الباحثين، أو يذكّرون من خلالها بتفوّق أحرزوه في بحوث لهم سابقة.

وإذا كان الحظّ لم يُسعف مايرز كي يعثر في المقالات العلميّة التي عاد إليها على هذا النوع من الاستعمالات اللّغويّة، فإنّه قد حالفنا عندما قلّبنا النظر في الكتابات الجامعيّة التي عدنا إليها. فهذا منصف بن عبد الجليل يُثني في أكثر من موطن على دارسات غيره من الباحثين، ولا يتردّد في الاعتراف بأهمّيتها وبالفضل لأصحابها. ومن أمثلة ذلك، قوله:

«ويبدو كتاب جورج قرم «تعدّد الأديان وأنظمة الحكم» من أفضل المؤلّفات الكاشفة عن المرجع الحديث لمفهوم الطائفة» (ابن عبد الجليل، 2001 :27).

ومن ذلك أيضا قول الباحث نفسه مُشيدا بالكتاب الذي وضعه دوسو (R. Dussaud) تحت عنوان «تاريخ النصيْريّين وديانتهم» مذكّرا في موطنين من الشاهد بفائدة هذا الكتاب وأهمّيته:

«وبدا لنا هذا البحث مهمّا للغاية حين عرض لمشغلين: أوّلهما التأريخ للفرقة النصيريّة ودفاع المصنّف عن نظريّة قدم عقائدها وابتدائها قبل محمّد بن نصير. وهذا وحده مثير للجدل المفيد. وثانيها اهتمام الباحث بأثر العقائد الكلدانيّة والفارسيّة في الديانة النصيريّة. وهذا أيضا مفيد للغاية فيوضع تصوّر لنشأة العقيدة الهامشيّة من صلب الثقافة الدينيّة السائدة. وهو من أبرز المشاغل التي سنهتمّ بها» (ابن عبد الجليل، 2001: 48) .

وممّا يدخل في باب استحسان الباحث أفعال زملائه من أهل الاختصاص، وإبداء إعجابه بدراستهم، قول الباحث السابق معترفا بفضل من سبقوه بالسابقين:

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

«وقد يسّر عملنا أن وجدنا عند السابقين فضلا لا ينازعون فيه، ولا يُغمطون، لأنّهم أظهروا من الدراية ما حلّلنا به المغلق، وعبّدوا لنا طريقا ما كنّا لنهتدي بدونه. ولولا أن فزعنا إلى أقوالهم، وتعلّقنا بمشاهداتهم، وطوّفنا بعيونهم، ما كنّا لنصيب من الرمز قصده، ولا من المظانّ محاملها، والعبارة طوّافة جوّالة، لعوب فتّانة» (ابن عبد الجليل، 2001: 46-47).

ومن الطرق التي بدت لنا نادرة في هذا الباب، أن يعترف الباحث-من باب التواضع-بتفوّق غيره من الباحثين، وأن يبلغ إعجابه بأعمال غيره درجة يصبح فيها شاعرا بالعجز عن الإتيان بمثل ما أتى به غيره من الباحثين. يقول منصف بن عبد الجليل:

«وشدّنا هاجس العرض للكتابات البابيّة والبهائيّة. فوجدنا في كتاب ماك أوين الحديث «مصادر العقيدة البابيّة الأولى» ما يُغني، لأنّنا عاجزون في الوقت الحاضر عن تجاوزه والمزيد عليه!» (ابن عبد الجليل، 2001: 60).

ومن طريف ما وجدناه عند الباحث السابق تلك المواطن التي ألفيناه فيها حريصا على وحدة الجماعة الخطابيّة، ساعيا إلى تجسير الصلة بينه وبين أفرادها، مُشيرا من بعيد إلى أنّ ما يكتبه ما هو إلاّ لبنة في صرح لا يكتمل بناؤه، إلاّ بجهود أولئك الأفراد الذين يهتمّون مثله بالفكر الإسلاميّ والذين ينتظر بفارغ صبر أن يطّلع على ما سيكتبون من بحوث لاحقة، وأن يعرف ما سيخلصون إليه من نتائج. يقول منصف بن عبد الجليل:

«ليس من الهيّن أن نجيب عن الأسئلة بما يُغني. وأملنا في بحوث غيرنا من المهتمّين بالفكر الإسلاميّ شديد، ولهفتنا إلى نتائجهم عظيمة. ونكتفي في هذا المقام بتقديم مشروع رأي لعلّ فيه شيئا من الصواب ينفع في وضع فرضيات بحث» (ابن عبد الجليل، 2001: 674).

وغير بعيد عن هذا الحرص على وحدة الجماعة الخطابية ما عبّر عنه طه حسين في آخر الفصل الذي درس فيه نماذج من الشعر المضري استنادا إلى المنهج القائم على الشكّ في صحّة قسم لا بأس به من هذا الشعر. يقول طه حسين:

«فأنت ترى بعد هذا كلّه أنّا في هذا الكتاب لم نكن هدّامين ليس غير. وإنّما هدفنا

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

لنبني. ونحن نحاول أن يكون بناؤنا متين الأساس قويّ الدعائم. ونحن نعتقد أنّا نوفّق من ذلك الكثير. ولكنّا في حاجة إلى الوقت من ناحية وإلى معرفة الصادقين من ناحية أخرى. وأكبر الظنّ أنّا لن نفقد ما نحتاج إليه من هؤلاء المخلصين الصادقين، حين نستأنف البحث عن الشعر الجاهليّ المضري في تفصيل ودقّة منذ السنة المقبلة إن شاء الله» (حسين، 1989: 308).

ورغبة الباحث في إقامة علاقة متينة بينه وبين الجماعة الخطابيّة قائمة لا يفسدها الاختلاف معهم في المنهج وفي النتائج. بل إنّ الاختلاف يُمسي فرصة ينتهزها البحث لتجسير تلك العلاقة. وهذا ما يفصح عنه مثل هذا القول:

«ونحن إذ نعرض هذه النتائج في هذا المقام، لواثقون من أكيد الحاجة إلى بحوث اللاّحقين ممّن سيسلكون شِعابا أخرى غير سبيلنا. ولهم نكون مدينين، لو صوّبوا خطأنا وقوّموا رأينا» (ابن عبد الجليل، 2001: 17).

فواضح من خلال هذا الشاهد أنّ الباحث راغب في الاقتراب هذه المرّة من باحثين-إن كانوا لا يوجدون بالفعل-فإنّهم موجودون بالقوّة، وإنّهم من طينة أولئك الذين يقدّر أن ستكون لهم إضافة إلى الموضوع الذي يشغل باله. بل إنّ الباحث لا يتردّد في القول بأنّه يتطلّع إلى بحوث غيره، وإن اختلفت عن بحثه من حيث المنهج الذي ستعتمده والأدوات التي ستتوسّل بها والنتائج التي ستخلص إليها. وهو ما يظهر في قوله:

«إنّ هذا الرأي يغري في الختام بالبحث في التداول السنّيّ/ الهامشيّ وتعاور الوظائف. واللاّفت في أمثلة النصيْريّة والبابيّة والبهائيّة أنّها قد ألجئت إلى تأسيس نصّ مقدس وإحداث وحي إعلانا لسيادتها ومقاومة للسنّيّة. ومعناه أنّها عارضت القرآن بنصوص ظنّتها من جنسه زادتنا طمعا في أن يهتمّ به غيرنا، عسى أن يكون لنا خلف أفضل منا نتعلّم منه حكمة غابت عنا ونحن له مدينون» (ابن عبد الجليل، 2001: 675).

ومن أهمّ الاستراتيجيّات التي يُراد بها تشريك القارئ واستحضاره في ثنايا النصّ، توفيرُ الباحث قاعدة من المعلومات والمعطيات المتعلّقة بالموضوع الذي يبحث فيه أو المسألة التي يريد مناقشتها. فالأمر هنا يشبه ما أشار إليه ب&ل بعبارة

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

«ادّعاء قاعدة مشتركة». فالمتكلّم من خلال هذه الاستراتيجيّة يُظهر للسامع أنّه مهتمّ به ومكترث بما يرغب فيه وما يحتاج إليه. وعادة ما يكون جمهور القرّاء أو ما يصطلح عليه بالجماعة الخارجيّة/ الجمهور العامّ (exoteric community) هم المقصودين بمثل تلك المعلومات، لا أهل الاختصاص أو ما يشار إليهم بمصطلح الجماعة الداخليّة/ الجمهور الخاصّ (esoteric community). وكأنّ الباحث-وهو يسوق تلك المعلومات-يستجيب لحاجات يفترض وجودها عند نوع من القرّاء تُواجهه مصاعب في فهم جملة من المفاهيم والمصطلحات الأساسيّة التي يقوم عليها البحث. وما من شكّ في أنّ نجاح هذه الاستراتيجيات يتوقّف جانب كبير منه على حسن تقدير الباحث حجم تلك المعلومات التي إذا كانت دون المطلوب، لم تُشف غليل القارئ ولم تأخذ بيده للوصول إلى فهم صحيح، وإذا فاقت الحدّ، قد يُحسّ القارئ فيها إهانة له، ويستشعر من خلالها استصغار الباحث إيّاه. وممّا يدخل في هذا الصنف من المعلومات، قول عبد المجيد الشرفي:

«ومن باب التذكير فقط، نشير إلى أنّ العالم الذي عاش فيه القدماء عالم تغلب عليه القداسة في كلّ مظاهره، وكان فيه الأفق الأخرويّ ماثلا في الأذهان في كلّ لحظة (...). ونذكّر كذلك بأنّنا إذا استثنينا فترة الإسلام الأولى التي شهدت تحوّلات فكريّة واجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة عميقة بفعل الفتوحات، فإنّ الأوضاع المعيشيّة العامّة قد شهدت منذ قيام الدولة الأمويّة استقرارا يكاد يكون كاملا» (الشرفي، 1994: 41).

أجل، يمكن أن نعتبر هذه المعطيات التي جاءت في شكل تذكير للقارئ، ضربا من استجابة الكاتب لحاجة القارئ إلى مثل تلك المعطيات التي تعتبر من قبيل القاعدة المشتركة والتي بدونها قد لا يستوعب القارئ الاستيعاب الجيّد «الأسباب التي دعت إلى انتشار النزعة السلفيّة على نطاق واسع في كامل أرجاء العالم الإسلاميّ»، ومن ثمّ قد لا يتّفق والكاتب في ما انتهى إليه من كون السلفيّة ظاهرة تاريخيّة بالأساس. وقد صرّح الكاتب نفسه-بعد صفحات قليلة-بهذه الغاية التي يجري إليها إيراده تلك المعلومات، حين قال:

«نرجو أن يكون من الواضح بعد هذا العرض المقتضب لأهمّ العوامل في انتشار السلفيّة، أنّ السلفيّة ليست من مقتضيات الإسلام، بقدر ما هي وليدة الظروف التاريخيّة بالأساس» (الشرفي، 1994: 46).

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

وحرص الكاتب على مراعاة مبدأ الكمّ في إيراد تلك المعلومات واضح، واستعماله عبارة «هذا العرض المقتضب»، آية على أنّه لا يقدّم للقارئ المعلومة، إلاّ بالقدر الذي يناسب حاجته إليها. ومثل هذا الحرص هو الذي دعا الكاتب نفسه في بحث آخر حول «المؤسّسة الدينيّة في الإسلام» إلى القول:

«إنّ هذه الوقفة الطويلة عند المؤسّسة الدينيّة في الإسلام عبر التاريخ كانت ضروريَة، لأنّ لهذا التاريخ امتدادا في الحاضر، ولأنّ المؤسّسة الدينيّة اليوم متأثّرة إلى حدّ بعيد بالممارسات التاريخيّة، رغم تغيّر الظروف والمعطيات. وإنّه ليعسر في هذا المقام تتبّع التحوّلات التي شهدها العصر الحديث في كلّ المجالات (...). وحسْبُنا أن نستعرض جملة من العوامل التي لها انعكاس مباشر على المؤسّسة الدينيّة» (الشرفي، 1994: 77).

فما من شكّ عندنا في أنّ مثل هذا الكلام موجّه إلى القارئ، وأنّ الدافع من إيراده استشعار الكاتب بأنّ القارئ قد ينزعج من طول تلك المعلومات، وقد لا يلتقط الهدف من ورائها، ولا يرى فيها فائدة، بل ربّما يرى فيها استنقاصا له، لأنّها من المعلوم لدى الجميع. نعم، إنّ الوظيفة الأساسيّة لمثل هذا الكلام تبديد ما يمكن أن يترتّب على الاستطراد في البحث من شكوك لدى القارئ لا يبدّدها إلاّ إشعار الكاتب إيّاه-بين الحين والحين-بأنّه نصْب عينه، إن توسّع في المعلومات المقدّمة إليه، فلأنّه يقدّر حاجته الماسّة إليها، وإن سلك طريق الاقتضاب، فلشعور منه بأنّ القارئ في غنًى عنها.

وقد لازم هذا الوعي الباحث في الصفحات الموالية التي أظهر فيها للقارئ-في مناسبات عديدة-كفّه عن الخوض في الجزئيّات والتفاصيل التي قد لا تستجيب لتطلّعات القارئ، واكتفاءَه-في المقابل-بما هو أساسيّ. وهو ما يظهر في قوله:

«ونكتفي في استعراضنا لهذه العوامل الرئيسيّة التي أحدثت تحوّلا نوعيّا في الحياة الحديثة بذكر عامل رابع يتمثّل في قيام مؤسّسات مجتمعيّة عديدة تؤدّي دور التعديل الاجتماعيّ» (الشرفي، 1994: 79).

والتزام الكاتب بالمبدأ نفسه عبّر عنه في موطن لاحق بميله إلى التلخيص قائلا:

«ويمكن تلخيص السمات الرئيسيّة التي تميّز الآن حالة المؤسّسة الدينيّة في ثلاثة

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

عناصر كبرى هي: الانطواء على الذات والتبعيّة للأنظمة السياسيّة القطريّة، وفقدان المصداقيّة» (الشرفي، 1994: 81).

ولم يحِد الكاتب عن مبدأ الاقتصاد، وهو يتناول أولى تلك السمات الثلاث التي نعت بها المؤسّسة الدينيّة تناولا بدا فيه زاهدا في التفاصيل، راغبا عن التوسّع، قائلا:

«وهو أمر لا يحتاج في الحقيقة إلى تحليل لكثرة الأمثلة التي تتبادر إلى الذهن على هذا السلوك. إلاّ أنّ ما يهمّنا في هذا المستوى هو انطواء المؤسّسة الرسميّة على نفسها لم يفدها في دعم إشعاعها. بل العكس هو الذي حصل» (الشرفي، 1994: 81).

وجنوح الكاتب إلى الاختصار واضح، حين توقّف عند السمة الثانية التي تميّز المؤسّسة الدينيّة، وأشار إلى أنّه مكتف بالمثال الواحد الذي يغني عن بقيّة الأمثلة، قائلا:

«وتتجلّى هذه التبعيّة في الكثير من المجالات. فيكفي أن نذكر مثلا المؤلّفات العديدة التي ألّفت في الستينات لدعم الخيار الاشتراكي باسم الدين أو دعم الخيار اللّيبيرالي باسم الدين كذلك» (الشرفي، 1994: 81-82).

وممّا يعزّز به الباحثون أواصر القربى بينهم وبين القارئ، استعمال جملة من الطرائق تسم الكتابة الأكاديميّة بجوّ من الحميميّة والألفة، لتقترب من أجواء المحادثات اليوميّة التي تنبض حياة وتمتلئ تفاعلا، ولتتخفّف قليلا من صرامة البحث الخالص الذي يُكتب بلغة تقريريّة جافّة ويصدر عن صوت واحد لا تسمع من ورائه صوتا آخر. فنحن ههنا أمام استحضار مكثّف للقارئ عبر جملة من الطرائق، شأن السؤال يُلقيه الباحث بين الحين والحين، أو الخطاب المباشر الذي يوجّهه الباحث إلى القارئ على نحو تصبح فيه الكتابة الأكاديميّة شبيهة بالحوار الدائر بين طرفين. ومن أبرز الجامعيّين الذين ألفيناهم يُواظبون على هذا النوع من التأدّب طه حسين. فهو لا يكاد يغفل عن استحضار قارئه والدخول معه في حوار متواصل وإلقاء السؤال عليه تلو السؤال. ومثل ذلك قوله:

«وما رأيك في أنّك لا تكاد تجد في فرنسا أو ألمانيا أو إنجلترا شابّا من أوساط الناس لا يختصّ في الأدب ولا يُعنى بدراسته، دون أن يكون قد ألمّ من هذا كلّه بحظّ لا بأس به (...). أفتظنّ أنّ لشيوخنا حظّا من الثقافة يُشبه حظّ أدبائنا القدماء

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

أو يُدانيه؟ (...) ستقول: ومَن الذي يستطيع أن يصدّق أنّ رجلا واحدا يستطيع أن ينهض بكلّ هذه الدراسات (...) ومَن الذي يستطيع أن يصدّق أنّ أستاذ الأدب في فرنسا أو في إنجلترا يُتقن مثل هذا المقدار الضخم من الدراسات؟ (...). ستقول هذا، وأنا كنتُ أنتظر أن أسمعه منك، ولم أكن أشعر بشيء من المشقّة في أن أردّ عليك هذا القول. فلْتلاحظْ قبل كلّ شيء أنّي لا أعرف–وأزعم أنّك لن تعرف– أستاذا للأدب الفرنسيّ أو الإنجليزيّ يستحقّ هذا اللّقب، إلاّ وقد أتقن اليونانيّة واللاّتينيّة لغة وفقها وأدبا وفلسفة» (حسين، 1989: 91–20).

ولسنا نعدم هذا النوع من التأدّب في كتابات تنتمي إلى مجال الدرس اللّغويّ الذي لم تحل تقاليد الكتابة الصارمة فيه دون الدخول في حوار مع القارئ. ومن الباحثين الذين ألفيناهم مولعين بهذا الأسلوب الباحث محمّد الشاوش. وحسبنا الاستشهاد بقوله:

«على أنّ مثل هذا التناول، لو حصل منهم، لا يتقدّم بكَ في البحث والتفسير قيد أنملة: فأن تعتبرَ [ج1...ج2...ج1] ناتجة عن تحويل [ج1...ج2]، إن أنتَ لم تراع فيه ما يصحب هذا التحويل من الفوارق المعنويّة وما يناسبه في قواعد التخاطب، يعني بكلّ بساطة أنّ نصّ الخطاب وقد بني على الاعتراض لا يختلف في شيء عن نصّ الخطاب إن أنتَ بنيته على غير الاعتراض. وهو قول كما ترى يجعل الاعتراض وعدم الاعتراض شيئا واحدا. فإذا آل بك الأمر إلى هذه النتيجة، فإنّك لن تعدم واحدا منهم سيُشهر في وجه هذه النتيجة مبدأ شفرة أوكام الذي يوجب أحد الأمرين لإغناء الآخر عنه» (الشاوش، 2001: 1288).

وممّا يدخل في باب سعي الباحثين إلى إيجاد أرضيّة مشتركة بينهم وبين القارئ، اعتماد استراتيجيّة تقوم على إخراج ما يمكن أن ينفتح عليه البحث من أسئلة ثقافيّة وحضاريّة من طيّ الكمون إلى ساحة الوجود. وكأنّ الباحث بذلك يستبق أسئلة القارئ وهواجسه، ويُريد أن يُظهر له أنّه على الرغم من وقوع البحث في دائرة ضيّقة وانتمائه إلى اختصاص دقيق، فمؤلّفه غير غافل عن تلك الصلة الوثيقة التي تشدّ بحثه إلى المجتمع بحبل متين، حتّى لا يبدو منبتّا عن الأخلاق والقيم الاجتماعيّة التي تظلّ هي المرجع لكلّ باحث مهما لطف اختصاصه وأوغل بحثه في التجريد والتنظير.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

إلى هذه الغاية تجري تلك الإشارات التي نجدها في ثنايا البحوث العلميّة والتي فيها إفادة بأنّ للبحث مردودا عمليّا وإمكانات تطبيقيّة تعود على الكائن الإنسانيّ بالنفع والفائدة والتي يمكن أن تُحمل على أنّها ضرب من التهدئة من روع القارئ وخشيته، حتّى لا يذهب به الظنّ إلى أنّ البحث الذي ينجزه الباحث لا علاقة له بالمجتمع ولا فائدة تُرجى منه (Myers). ولا تتجرّد البحوث المنتمية إلى الدراسات الإنسانيّة من هذا السعي إلى ربط المعرفة بالمجتمع وقيمه، ومن ثمّ إلى إيجاد أرضيّة مشتركة تنعقد فيها الصلة بين جمهور الباحث الصغير بالمجتمع الكبير. وأحسن مثال على ذلك مقدّمة كتاب «الوجه والقفا: في تلازم التراث والحداثة» التي جاءت خطابا هو أقرب إلى البوح والإفضاء توجّه به الباحث حمّادي صمّود مباشرة إلى القارئ في معناه الواسع، مستعملا فيه تاء المخاطبة، كاشفا عن القيمة الأخلاقيّة التي حرّكته في بحثه وعن العقيدة التي صدر عنها، وهو يجمع في هذا الكتاب بين نصوص تنتمي إلى «بيئات مختلفة وأعصر متباعدة» (المقامات العربيّة-علم الأسلوب الحديث) والتي بدون استحضارها واعتناقها لا يتبيّن القارئ الصلة بين تلك النصوص. يقول الباحث:

«فأنتَ ترى أيّها القارئ الكريم أنّ رسالتي إليك ودافعي إلى نشر هذه النّصوص ليس ما قد تجد فيها من فائدة. وإنّما حرصي أن أنقل إليكَ بعضاً من عقيدتي، وأن أصلك بإيمان لديّ عميق لا يرى إلى العصر مدخلاً غير العصر، ولا يرى بين التّراث والحداثة انسجاماً إلاّ بالتّلازم والمعالجة المسؤولة الواعية الواعدة» (صمّود، 1988: 6).

فالباحث حريص كلّ الحرص على أن يُميط اللّثام عن قاع عميق لبحثه يريد أن يجذب قارئه إليه، حتّى يكون كالحبل المتين الذي يربط بينهما والعقيدة الراسخة التي تجمعهما والقيمة المشتركة التي تمثّل-في نهاية المطاف-رسالة نبيلة يريد الكاتب أن يحملها إلى القارئ من وراء هذا الجمع بين قراءة نصّ من التراث ألا وهو المقامة، والتعريف بعلم حديث هو الأسلوبيّة.

والتعبير عن جملة من المشاعر وسيلةٌ أخرى يشعر بها القارئ بأنّ في الباحث جانبا إنسانيّا يشاركه فيه، وأنّ البحث مهما أوغل في العلم وضرب في الاختصاص يظلّ لصيقا بالكائن البشريّ الذي يجمع بين القوّة والضعف في آن معا. فمدار الأمر ههنا على مسافة يريد الباحث تجسيرها، حتّى يظهر للقارئ في صورة قريبة

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

منه، هي صورة الإنسان الذي يقاسمه جملة من المشاعر والتجارب. ويدخل في هذه الاستراتيجيّة تعريج الباحث على الصعوبات التي واجهته في أثناء البحث، وإفصاحه عن جملة من المشاعر كالدهشة والعجب ينتابانه عند اكتشاف النتائج غير المنتظرة، أو الحيرة تعصف به عند الشعور بالمفارقة وحين لا تتّضح مسالك البحث، أو الإحباط والخيبة يلفّانه عندما لا تُسعفه أدوات البحث بالوصول إلى الأهداف التي رسمها والغايات التي هفا إلى الوصول إليها. فهذا محمّد القاضي لا يملك أمام استحالة القطع في نسب عدد كبير من الاخبار التي تشكّل مدوّنة بحثه إلّا أن يقول:

«إنّ هذه المفارقة الأولى تدفع بقارئ الأخبار إلى مهْمَه الحيرة الباهظة. فلا هو يستطيع أن يعدّ هذا الرصيد من النصوص أدبا شعبيّا لا يُعرف مؤلّفوه. ولا هو يستطيع أن يجعل هذه الأخبار منسوبة نسبة صريحة إلى رجل معلوم وإلى عصر محدّد. وفي خضمّ هذا التردّد لا نملك إلاّ يقينا واحدا هو وجود هذه النصوص في الكتب التي تشكّل مدوّنتنا» (القاضي، 1998: 688).

وها هو محمّد الناصر العجيمي يُفرد صفحات من مقدّمة بحثه للحديث عن الصعوبات التي اعترضت طريقه، وهو يُجهد نفسه في سبيل ضبط إطار لموضوع بحثه الدائر على نقد النقد تتّضح به حدوده، فلا يستقيم له الأمر، ولا تنصاع له المادّة لفرط تراميها وتنوّعها، ويرنو إلى اعتماد منهج علميّ تتحقّق به الموضوعيّة، فيخذله المنهج، ليتأكّد أنّ الموضوعيّة تظلّ في كثير من موضوعات البحث–شأن نقد النقد–غاية تُطلب فلا تُدرك، وليشعر بما يشعر به الإنسان من عجز وإحباط عندما تكبر المسافة بين ما يطمح إليه وما يحصل–في نهاية المطاف– عليه. يقول الباحث:

«لا يسع الدارس وقد انتهى به التحليل إلى هذا الحدّ، إلاّ أن يقرّ بتعطّل آلته وقصورها عن إدراك ضالّته المنشودة في بلوغ الموضوعيّة وبناء موضوعه وفق أسس علميّة صحيحة، ويسلّم من ثمّ بفشل المشروع الذي ندب نفسه لتحقيقه. ذلك أنّنا نجد أنفسنا في سعينا إلى نقد النقد قائمين بالفعل على الحدّ، بل على حدّ الحدّ، عاجزين عن ضبط موضوعنا بدقّة تامّة ورسم حد فاصل يسمح لنا بتخطّي العقبات والاستواء على أرضيّة صلبة (...). ذاك قدَرُ الباحث وسبب شعوره بضرب من الإحباط: يروم الإحاطة بالكلّي، فلا يظفر إلاّ بالموضعيّ الجزئيّ،

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

ويسعى إلى احتضان البنية العميقة، فلا تُسعفه أداة البحث إلاّ بالعارض المظروف»، (العجيمي، 1998: 9–13).

5 - استراتيجيّات التأدّب السلبيّ في الكتابة الأكاديميّة: إظهار الاحترام لأفراد الجماعة الخطابيّة

وهي جملة من الاستراتيجيّات المستخدمة للتخفيف من ضراوة الأعمال اللّغويّة التي يمكن أن تمثّل خطرا على ماء وجه الجماعة الخطابيّة الضيّقة المتكوّنة بالأساس من أهل الاختصاص والتي لا مناص للباحث من إتيانها في مواطن كثيرة من البحث، من قبيل إشارته إلى النتائج التي وصل إليها غيره من الباحثين، وحديثه عن نوع المنهج الذي سيعتمده في بحثه مقارنة بالمناهج التي اعتمدت في دراسات سابقة، وبسطه آراءه الشخصيّة ومزاعمه في البحث. وقد أشار مايرز إلى أنّ عددا من الأساليب التي أمست تُعدّ من أعراف الكتابة الأكاديميّة، يمكن–إن دقّقنا فيها النظر وأعدنا تأويلها– أن نحشرها في إطار جامع، ألا وهو التأدّب السلبيّ الذي يُعدّ التلطيف (hedging) والأبنية المبهمة (impersonal constructions) من أبرز الأساليب المعتمدة فيه والتي تجري إلى تحقيق غاية واحدة، ألا وهي إظهار الباحث الاحترام للجماعة الخطابيّة التي ينتمي إليها وإلى أهل الاختصاص على وجه التحديد (Myers, 1990: 18).

١- الأبنية المبهمة:

تقوم هذه الاستراتيجيّة حسب ب&ل على إيحاء المتكلّم بأنّه راغب عن إلحاق الأذى بالسامع. ومن الطرق المعتمدة في ذلك، التعبير عن العمل اللّغويّ المهدّد ماء الوجه على نحو يوهم فيه المتكلّم بأنّه ليس هو الفاعل، أو بأنّه من الممكن ألاّ يكون هو، أو ليس هو المستأثر بالقيام بالفعل، وبأنّ المقصود بذلك العمل ليس هو السامع، أو قلْ هو في أسوأ الحالات عمل يستهدف أطرافا من بينها السامع. وتترتّب على ذلك مجموعة متنوّعة من الاستخدامات التي يتمّ فيها تجنّب استعمال ضميريْ المتكلّم والمخاطَب (B&L, 1987: 190). ومن أبرز هذه الاستعمالات مجموعة من الطرائق نذكر منها:

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

أ- الاستعاضة عن ضمير المتكلّم بطرف مبهم:

وهذه طريقة من الطرائق التي يُضعف بها الباحثون درجة تعهّدهم بالحقائق التي تعبّر عنها جملهم أن ينسحب المتكلّم من ساحة التلفّظ ليتوارى خلف طرف مُبهم يشار إليه (المتأمّل، الناظر، المتمعّن ...). فتحويل الفاعل من طرف معيّن ومعروف هو المتكلّم إلى شخص مبهم يترتّب عليه من جملة ما يترتّب فكّ القران بين المتكلّم والعمل اللّغويّ المهدّد ماء الوجه. فكأنّ الباحث يُلقي بالشبهة التي يمكن أن تحوم حوله جرّاء إتيانه عملا لغويّا يهدّد ماء الوجه إلى جهة غير معلومة. ومن أمثلة ذلك تبرير حسين الواد عقده فصلا حول تعامل القدماء مع الألفاظ المفردة في شعر المتنبّي بزعم انطلق منه في هذا الفصل قائلا:

«إنّ أوّل ما يستوقف الناظر في المؤلّفات التي تعامل بها القدماء مع شعر المتنبّي، إنّما هو تلك العناية التي خصّ بها أصحابها ألفاظه المفردة (...). والمتأمّل في تعامل القدماء مع أدبهم سرعان ما يلاحظ أنّ عنايتهم بالألفاظ المفردة كانت تقوى وتشتدّ كلّما جنحت النصوص إلى استعمال اللّغة استعمالا فنّيا، وأنّها كانت تضعف وتندر كلّما أُجري الكلام فيها مجرى المألوف في المحاورة (...). والمتأمّل في وضع القدماء لنظريّتهم في الكلام وجماله، يلاحظ عندهم عناية بالألفاظ المفردة أفرزت لقوّتها مصطلح الفصاحة، وقد جعلوه خاصّا باللّفظ، وأسلمت أهل الثقافة إلى أن يُقيموا معه علاقات انفعاليّة حميمة» (الواد، 1993: 107).

وهذه السياسة نفسها القائمة على التنصّل من مسؤوليّة القول بإسناده إلى غير المتكلّم، سلكها حسين الواد عندما خطّأ ذلك المنهج الذي يربط أصحابه ربطا آليّا بين شعر المتنبّي وحياته. يقول الباحث:

«والذي يفضي إليه التأمّل في مواطن الغموض من سيرة أبي الطيّب وفي المواقف الجازمة أو المتحرّجة التي وقفها منها المعاصرون، إنّما يتمثّل في أن المنهجيّة التي تربط هذا الربط الآليّ البسيط والفجّ بين شعر الرجل وشخصيّته وحياته، إنّما هي منهجيّة خاطئة» (الواد، 1993: 33).

ويمكن أن نحمل هذا الأسلوب على أنّه طريقة يُزيل بها الباحثون مفعول الصدمة أو صفة الغرابة عن الأعمال التي ينجزونها، حتّى تبدو مألوفة ومتوقّعة من

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

أهل الاختصاص. فبدل أن يقول أحمد الجوّة: «وجدتُ في مدوّنة الرومنطيقيين ما تتأكّد به ثورتهم على البناء الشعريّ التقليديّ ، وعاينتُ إبدالات إنشائيّة تُعدّ دليلا على اتّباع التنظير بالإجراء»، اختار هذه الصيغة التي لا تُظهره يأتي فعلا بدعا:

«يتوقّع الناظرُ في مدوّنة الرومنطيقيين الذين راموا تحرير الشعر العربيّ من البناء التقليديّ أن يجد في نصوصهم ما تتأكّد به ثورتهم على هذا البناء، وأن يُعاين إبدالات إنشائيّة تُعدّ دليلا على اتّباع التنظير بالإجراء» (الجوّة، 2011: 160).

وبدل أن يختار الهادي الجطلاوي الصيغة التي يُسند فيها عمل الملاحظة إلى نفسه، اعتمد صيغة أخرى تُظهر هذا العمل مألوفا لدى كلّ من اعتاد أن يقرأ تفسير الزمخشريّ من وجهة نظر لغويّة. يقول الباحث:

«والمستأنسُ بتفسير الزمخشريّ، يُلاحظ أنّ من وسائل التوكيد ما تردّد توظيفه في الخبر القرآنيّ، مثل الاستئناف والضمير المنفصل وألف ولام التعريف» (الجطلاوي، 1998: 558).

ب- الاستعاضة عن المتكلّم الفاعل بطرف مجهول:

وهو أسلوب يتجنّب به الباحث-عند صياغة العمل اللّغويّ المهدّد لماء الوجه- الإحالة المباشرة على الأشخاص الذين يتضمّنهم ذلك العمل، حتّى لا يظهر المتكلّم في مظهر الفاعل، ولا يتحمّل من ثمّ وحده المسؤوليّة، وحتّى لا تنحصر الإساءة المترتّبة على إتيان ذلك العمل اللّغويّ في السامع. واستخدام هذا الأسلوب شائع في الكتابة الأكاديميّة، وهو يستعمل من جملة ما يستعمل في إبراز نتائج البحث. وفي ذلك دليل على أنّ النتائج في تقاليد البحوث أهمّ ممّن يكتشف الظواهر أو يبني الفرضيات. والباحث حين يستخدم في التعبير عنها صيغة المبنيّ لغير الفاعل، فلكي يشير من بعيد إلى أنّها متاحة للجميع، وليست حكرا على أحد الباحثين. فنحن أمام استراتيجيّة تنهض على توجيه النتائج نحو تجنّب الفاعل الحقيقيّ. وهاكم أمثلة توضّح هذا الاستخدام:

«يُستنتج من النقاط 1و2و3 أنّ المَثَلَ يُحيل دائما على وضعيّة عامّة، حتّى وإن بدا معناه الحرفيّ معنى حرفيّا مضمّنا في معنى أعلى منه» (صولة، 2001: 276).

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

«ويُستخلصُ من هذا القسم أنّ نظام التعريف في التمييز له مفاتيحه. فعلاقة الثاني بالأوّل فيه علاقة المفرد بالمفرد، أو المفرد بالجملة، ولا تنعكس (...) كما يُستخلصُ من هذا القسم أنّ نظام التعريف فيه نظام مزدوج اعتبارا بالأوّل، وواحد اعتبارا بالثاني. فيكون فيه التعريف بالاعتبار الأوّل بيانا وتفسيرا» (الكشو، 1997: 402-403).

«المشهود أنّ الضمير الإسلامي قد تدرج في توسيع الفضل من مناسبات خاصة وأفراد بأعيانهم إلى طبقة بتمامها، بل إلى طبقات. وكان الحديث في خير القرون خادما هذا الغرض» (ابن عبد الجليل، 1999: 56).

«والمُلاحظ في هذا الموقف أنّه هام جدا في دلالته على التغير الحاصل في العقليّات والناجم، فضلا عن ازدهار الاقتصاد وتحضّر المجتمع (...) عن دور الاختلاط العرقيّ والتمازج الثقافيّ منذ أواخر القرن الأوّل، ثم من خلال القرن الثاني بالخصوص في بروز عقليّة المال والتعلّق به» (المنّاعي، 1998: 719).

يتّضح من هذه الأمثلة أنّ الفاعل الحقيقيّ الذي يُناط به إنجاز الفعل، شأن الاستنتاج أو الملاحظة، يُستعاض عنه بفاعل مجهول أو بعبارة غير مباشرة. فنحن إزاء ضرب من التبعيد يستخدمه الباحثون ويريدون من ورائه التنويع في درجات التزامهم بالمحتوى القضويّ، حتّى تكون هناك فرصة للتملّص من المسؤوليّة ومجال للمناورة، متى حامت الشكوك حول صدق ذلك المحتوى، أو طعن طاعنٌ في صحّة المزاعم التي زعمها الباحث، أو تبيّن أنّ النقود التي وجّهها لغيره من الباحثين لم تكن في محلّها. فالباحث وهو يحصّن آراءه ومزاعمه بمثل هذه الوسائل، إنّما هو في الحقيقة يحفظ في الآن ذاته ماء وجهه وماء وجه أهل الاختصاص الذين يمكن أن يخالفهم الرأي في عدد من الآراء، مثلما يمكن أن يوجد من داخل الاختصاص مَن يناقض مزاعم ذلك الباحث.

ج- تحويل المتكلّم من وظيفة الفاعل إلى المفعول به:

استخدامُ هذه الطريقة في إسناد الكلام شائعٌ في القسم المخصّص لنتائج البحث. وتفسير ذلك عندنا طبيعة العمل اللّغويّ الذي يأتيه الباحث في هذا القسم (إثبات نتيجة مّا) والذي يمكن أن يهدّد ماء وجوه أهل الاختصاص، وخاصّة عندما يكون

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

هناك تعارض بين النتائج المستخلصة وما هو سائد وشائع داخل الاختصاص، أو يهدّد ماء وجه الباحث نفسه، حين لا تصمد تلك النتائج أمام ما سيتوصّل إليه الباحثون في وقت لاحق. فمدار الأمر إذن على صيغة حذرة تضمن للباحثين إثبات النتائج التي خلصوا إليها وعدم الظهور على سطح الكلام في آن معا. وهذه مجموعة من الشواهد توضّح هذا الاستعمال:

-«إنّ كلّ ما تقدّم من تحاليل لفعل 'رأى'، جرّنا إلى ربط فنّ الكتابة الروائيّة بالرسم، وبيّنّا أنّ بين الفنّين أسبابا وأنسابا» (الخبو، 2012 أ: 47).

-«يوصلنا ما سبق النظر فيه إلى القول إنّ السرديّات المحايثة مفيدة وضروريّة. ولكنّها ليست كفيلة وحدها باستقصاء خاصّة النصّ القصصيّ: القصصيّة عامّة» (الخبو، 2012 أ: 156).

-»أوصلنا الانطلاقُ من تفاوت نظرة القدماء إلى شعر المتنبّي في تعاملهم معه إلى أنّهم جعلوا منظومه في ثلاث مراتب (...). وأوصلنا البحثُ في تفاوت نظرة القدماء إلى شعر المتنبّي إلى أنّ الذي شغلهم منه لا يزيد في أكثر الأحوال تسامحا على خمس ديوانه» (الواد، 1993: 105-106).

-«وقد ساقنا الفحصُ في مدوّنة محدّدة-هي أخبار الغزليّين العذريّين-إلى أنّها مثّلت سناما من أسنمة التطوّر التي بلغها الخبر الأدبيّ استجزنا معه أن نجري مجرى بعض الباحثين المعاصرين، فوسمناها بالرواية العذريّة» (القاضي، 1998: 692).

وغير بعيد عن الاستخدام، تراكيب أخرى مبهمة يستعملها الباحثون في عرض نتائج بحوثهم عرضا يتجنّبون فيه استخدام ضمير المتكلّم المفرد، حتّى تبدو تلك النتائج للقارئ من تحصيل حاصل ولا يمكن أن نحمّل الباحث المسؤوليّة فيها في حال عدم صمودها أمام ما يمكن أن تسفر عنه البحوث اللاّحقة من نتائج أخرى. على هذا النحو آثر محمّد الخبو أن يقدّم هذه النتائج الثلاثة من بحوثه قائلا:

-«وما يتحصّل من هذا العمل أنّ المجموعة القصصيّة «منابت الحنظل» اشتملت على نصوص أقصوصيّة سلك فيها صاحبها مسلكا طريفا في الكتابة الأدبيّة التي ظاهرها تقرير وباطنها تصوير» (الخبو، ب 2012: 70).

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

-«والحاصل ممّا تقدّم أنّ الأقصوصة الحُلْميّة في تونس من خلال ما تناولناه من نماذج نصّ التبس به الحلم. فحوّل كائناته إلى تصاوير لعناصر ليست ذات حدود بيّنة، إذ هي لا تقدّم على سبيل الوصف لما هو موجود، وإنّما على سبيل إنشاء ما يكون مجالا للعشق الأكبر» (الخبو، 2012 ب: 153).

-«ومُحصّل القول إنّ الجهة في رواية - أن ترى الآن- لا تعرضُ في الجمل تشتمل على صيغ موجّهة مثل أفعال المعرفة والشكّ والإحساس والإدراك فحسبُ كما تقدّم، وإنّما تعرضُ أيضا-ونحن بإزاء نصّ روائيّ- بكيفيّات تركيب هذه الجمل على هيآت مخصوصة كما تبيّن» (الخبو، 2006: 192).

٢- **التلطيف**:

يعرّف ب&ل التلطيف بأنّه جملة من العناصر اللّغوية (أداة، كلمة، مركّب) يترتّب على استعمال المتكلّم إيّاها تحوير في درجة انتماء محمول مّا أو عبارة اسميّة إلى مقولة من المقولات. فمدار هذا الاستخدام اللّغويّ على الإفادة بأنّ ذلك الانتماء هو من ناحية من النواحي إمّا جزئي أو صحيح أو هو أكثر صحّة ممّا كان متوقّعا (B &L, 1987: 145). ففي قولك: «تملّقُك هذا نوعٌ من النفاق» إفادة تُفهم من كلمة «نوع» بأنّ انتماء سلوك المخاطَب إلى مقولة النفاق ليس في قوّة انتماء أنواع أخرى من السلوك إلى تلك المقولة. أمّا في قولك: «أنا على يقين تامّ بأنّني قرأت هذا الكتاب»، فالتلطيف الذي تأدّى بمركّب الجرّ (على يقين تامّ) يفيد بأنّ المتكلّم جازمٌ فيما يقول، واثقٌ من صدق المحتوى القضويّ لكلامه.

والتلطيف-في تقدير مايرز-يغدو استراتيجيّة من استراتيجيّات التأدّب في الكتابة الأكاديميّة عندما يستعمله الباحث طريقةً يسم بها الأفكار التي يزعمها والآراء التي يُصرّح بها وسما ينزع عنها طابع الإطلاق والوثوق، ويُضفي عليها قدرا من النسبيّة، ويقدّمها إلى القارئ على أنّها ليست من الحقائق المطلقة. بل هي مجرّد آراء مؤقّتة تنتظر موافقة من الجماعة الخطابيّة (Myers, 1990:12). والتلطيف يُستخدم في الكتابة الأكاديميّة للتخفيف من حدّة المزاعم سواء عند إثباتها أو عندما يُراد نفيها ودحضها. وهو يُستخدم-أكثر ما يُستخدم-حين يبسط الباحث رأيا جديدا أو فكرة لم تخضع بعدُ للاختبارات، ولم تقم الأدلّة على إثبات صحّتها.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

فالتلطيف في هذه الحالة وسيلة يُضعف بها الباحث درجة مسؤوليّته تجاه الحقيقة التي يبسطها في ثنايا جمله، حتّى إذا تبيّن عدم دقّة تلك المزاعم في بحوث لاحقة، أمكن للباحث أن يحتمي بتلك الوسيلة، وأن يتملّص من ثمّ من المسؤوليّة الملقاة على عاتقه. إلى هذه الغاية جرت جملة من التعابير الملطّفة الواردة في هذه الفقرة التي جاءت في ثنايا تقديم عبد السلام المسدّي الفصل الموسوم «عقبات البحث اللّسانيّ». يقول الباحث:

« ليس ما نُقدّمه بكشف علميّ بالمعنى الصارم في البحث والاستقصاء. وإنّما هو تحسّس تقريبيّ قد يصدق في موطن ولا يصدق في آخر، وقد ينطبق بعضه على بعض رقعات الوطن دون أخرى. فهو إذن ضرب من الخواطر نحاول أن نجلوَ بها العقبات الموضوعيّة التي تعترض سبيل النهضة اللّسانيّة في الفكر العربيّ المعاصر، حتّى إذا وعيناها وعملنا على فكّها في صميم واقعنا العلميّ والجامعيّ والثقافيّ ابتعثنا منه واقعا غيره» (المسدّي، 1986: 12).

والتلطيف يُستخدم كثيرا في المواطن التي يكون الرأي الذي يعبّر عنه الباحث مختلفا عن رأي غيره من الباحثين أو عن الآراء السائدة داخل الاختصاص. وهو في هذه الحال حيلة يتوسّل بها الباحث، كي لا يجد نفسه في مواجهة صريحة يُضطرّ فيها إلى إعلان الخلاف مع زملائه من أهل الاختصاص، أو الطعن في مزاعمهم وفي ما انتهوا إليه في بحوثهم من نتائج، أو التجريح في المنهج المعتمد من لدنهم في مقاربة الظواهر (عبيد، 2012: 279–282). على هذا النهج في إظهار الاختلاف مع الآراء السائدة سار أحمد الجوّة، وهو يقرأ قصيدة الشاعر شوقي بزيغ «مرثيّة الغبار» قراءة تختلف في بعض جوانبها عن قراءة الباحث أحمد بزون القصيدة نفسها. يقول الباحث مُرخيا العنان لمخالفه في الرأي ومُظهرا الاتّفاق معه في البدء، مُعبّرا بعد ذلك عن وجهة نظره:

«لسنا نُماري في أنّ «مرثيّة الغبار» قد غلب عليها الانفعال، وأنّ الوظيفة اللّسانيّة التي هيمنت فيها هي الوظيفة التأثّريّة التي مدارها على ضمير المتكلّم، وأنّ الوظيفة المرجعيّة والإحالات التي يقتضيها السرد لم تكونا بارزتين داخلها، ولكنّنا مع ذلك واجدون فيها بعض أمشاج من القصّة وعددا من عناصرها» (الجوّة، 2011: 276).

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

وقد سلك محمّد قوبعة مسلك التلطيف في نقده «أغلب مؤرّخي أطوار الفكر العربيّ الحديث»، وبالتحديد عند اقتفائه أثر العوامل التي ساهمت في تطوير الشعر العربيّ في العصر الحديث. يقول الباحث:

«لئن اعتاد أغلب مؤرّخي أطوار الفكر العربيّ الحديث أن يُرجعوا أصول ما طرأ على هذا الفكر من تحوّل إلى حملة بونابرت على مصر حينا، وإلى نتائج ما شهده الشام من حركة فكرية (...) حينا آخر، فإنّ اتّصال العرب بالفكر الغربيّ أيّا كان شكل ذلك الاتّصال يبدو لنا من العوامل التي يصعب الإقرار بنتائجها المباشرة (...). ولكن هذا لا يعني إنكار أثر الاتّصال بالغرب من جهة الإسهام في تطوّر الشعر العربيّ باعتباره عاملا خارجيّا فاعلا، وإن كان فعله في الشعر بطيئا غير مباشر. فحملة بونابرت على مصر–مثلا–لم تؤدّ في زمنها إلى كتابة شعريّة على نمط غير مألوف لدى العرب (...). ولعلّ القول بأثر الاتّصال بالغرب في مجال الأدب عموما يرتكز على ما اضطلع به الاطّلاع على الآداب الغربيّة–وقد استغرق ذلك عقودا طويلة–من دور لا يمكن إنكاره في فتح مجالات للكتابة» (قوبعة، 2001: 104–105).

وتخفيف النقد الموجّه إلى الآخرين باستعمال صيغ التلطيف، له مسالك أخرى منها أن يتكلّم الباحث بلسان غير لسانه، شأن النقد الذي وجّهه عبد القادر المهيري إلى النحاة القدماء بسبب اعتبارهم «الجملة المبدوءة باسم متبوع بفعل جملة اسميّة». يقول الباحث:

«لكلّ هذه الاعتبارات عدّت الجملة المبدوءة باسم متبوع بفعل جملة اسميّة. وفضّل النحاة تجشّم ما ينجم عن ذلك من تعقيد في التحليل على التزام واقع اللّغة وطبيعة التركيب. ولا يمكن للدارس في العصر الحديث أن يسلّم بهذه النظرة وأن يقتفي أثر النحاة في تخريجاتهم المنطقية والأسباب الداعية إلى ذلك عديدة» (المهيري، 1993 ب: 47).

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

6- استراتيجيّات التأدّب الإيجابيّ والتأدّب السلبيّ من خلال مقال للباحث عبد القادر المهيري:

تناولنا في العنصرين السابقين كلاّ من استراتيجيّات التأدّب الإيجابيّ والتأدّب السلبيّ على نحو منفصل ومن خلال شواهد متفرّقة. ونحاول الآن أن نضرب عليهما-مُجتمعين في نصّ واحد-مثالا اخترنا أن يكون مقالا حرّره الباحث التونسيّ عبد القادر المهيري تحت عنوان «خواطر حول علاقة النحو العربيّ بالمنطق واللّغة» (المهيري، 1993 ب: 85-99). ويحسُن أن نشير في البدء إلى أنّ هذا المقال يجري إلى غاية أساسيّة، ألا وهي إبطال زعم سائد يدّعي أصحابه، وعلى رأسهم المستشرق ميركس (Merx)، بأنّ النحو العربيّ نشأ على عاتق المنطق اليونانيّ، ومن ثمّ فهو مدين في معظم موضوعاته ومعطياته للفلسفة اليونانيّة. ويحسُن أيضا أن نشير إلى أنّ في هذا المقال عددا غير قليل من الصيغ والتعابير تبدو للناظر العجل من الحشو والزوائد التي يمكن الاستغناء عنها، إن آثرنا أن نسلك مسلك الإيجاز والاقتصاد في العبارة.

أجل، قد يسأل سائل: ما الجدوى من استعمال المهيري عبارتيْ «من العسير أن نعتبر» و«في نظرنا» في قوله:

«ومن العسير-في نظرنا-أن نعتبر مثل هذه الإرشادات من شأنها أن تكوّن حججا تقنع بتأثر الفكر النحويّ العربيّ بالتفكير اليونانيّ، فضلا عن اكتفاء النحاة بتبنّي المعطيات الفلسفيّة اليونانيّة» (المهيري، 1993 ب: 90).

ألا يكون من باب الاقتصاد والدقّة في الأداء أن يستغني الباحث عن هذه العبارة، ويكتفي بالقول: «إنّ هذه الإرشادات لا تكوّن حججا تُقنع...»؟ وقد يَحار هذا السائل في أمر عدد الجمل لفرط ما تخلّلها من عبارات لا يفهم كُنهها، كقول الباحث:

«إنّ إمعان النظر في ما خلّفه لنا النحاة من مؤلّفات يكشف-حسب ما نعتقد-عن أسس منهجيّة مختلفة». (المهيري، 1993 ب: 98).

لماذا آثر الباحث هذه الصيغة المطوّلة وأقحم جملة اعتراضيّة، وأعرض عن استعمال الصيغة المباشرة والأكثر إيجازا: «تكشف لي مؤلّفات النحاة عن أسس منهجيّة مختلفة»؟

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

إنّ هذه الحيرة لا تتبدّد وهذه التعابير لا يمكن أن نفهم كُنهها والغاية من استعمالها، إلاّ إذا تناولناها من منظور تفاعليّ، واستحضرنا الخطر الكامن في العمل اللّغويّ الأكبر الذي تندرج فيه سائر الأعمال اللّغويّة الفرعيّة في المقال والذي يهدّد ماء وجه عدد من الدارسين من أمثال المستشرق ميركس ومَن قال برأيه شأن إبراهيم مدكور وعبد الرحمن أيّوب وأمين الخولي، لأنّ هذا العمل في جوهره تقويض لزعمهم القائل بتأثّر النحو العربيّ في طور نشأته بالفكر اليونانيّ. نعم، إنّ تلك التعابير التي تبدو لمن لم يقلّبْ النظر فيها مِن لغو القول، لهي عندنا ضرب من البلاغة التي تساعد الباحث على التمكين لأفكاره ومزاعمه والتفاعل مع قارئه وعلى عقد صلة جيّدة مع أهل الاختصاص، حتّى في الحالات التي تختلف فيها وجهات نظره مع ما هو سائد ورائج داخل الحقل المعرفيّ الذي يكتب فيه. وهذه البلاغة تقوم بالأساس على عدد من استراتيجيّات التأدّب التي تؤول في نهاية المطاف إلى استراتيجيّتين مهمّتين تهدف أولاهما إلى خلق نوع من الوحدة والتآزر بين الباحث وجمهور القرّاء بمن فيهم عدد من أهل الاختصاص، وترمي الثانية إلى إشعار القارئ العامّ والمتخصّص بأنّه محترم في آرائه، وبأنّ الباحث لا يفرض عليه رأيا ولا يكدّر له صفوا. وهاكم تفصيل القول في هاتين الاستراتيجيّتين:

أ-استراتيجيّات التأدّب الإيجابيّ:

قد يستغرب القارئ حديثنا عن هذا النوع من التأدّب في مقال ينازع فيه الباحث رأيا سائدا حول قضيّة مدى تأثّر النحو العربيّ في طور مبكّر بالمنطق اليونانيّ. فمدار المقال على الطعن في صحّة الزعم الذي بالغ أصحابه في القول بتأثّر النحو العربيّ بمنطق أرسطو. ومن الطبيعيّ أن نعدم في مثل هذا المقال صيغ تأدّب ينشد الباحث من استعمالها الاقتراب ممّن يخالفهم الرأي وإظهار التضامن معهم. أجل، لا نجد مثل هذا في المقال. ولكنّنا نعثر على شريحة أخرى من القرّاء المتخصّصين سخّر الباحث جملة من صيغ التأدّب كي يُعزّز انتماءه إليهم، ويبرهن للقارئ على أنّ اختلافه مع ميركس ومَن لفّ لفّه لا يعني البتّة أنّه في خلاف مع جميع الباحثين المتخصّصين في النحو العربيّ وتاريخه.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

فعلى قدر ما كان الباحث حريصا على بيان تهافت حجج ميركس وأتباعه، كان حريصا على وحدة الجماعة الخطابيّة، أو قلْ على وحدة جزء منها لم يتردّد في أن يُظهر انتماءه إليها واشتراكه مع مكوّنات هذا الجزء في كيفيّة مقاربة مسألة تأثّر النحو العربيّ بالفكر اليونانيّ. وقد تجلّى هذا الحرص في ملاحظة خاطفة أشار فيها المهيري إلى أنّ عمله لم ينبثق من فراغ، بل يندرج في جهود سابقة وأنّ هناك «جماعة من الباحثين» تصدّوا لآراء ميركس ومن اقتفى أثره وقابلوا تلك الآراء بالرفض (ص: 86). ولم يكتم عبد القادر المهيري إعجابه بجهود واحد من هذه الجماعة أنجز حول هذه القضيّة بحثا تحدّث عنه المهيري في لغة أقرب إلى التقريظ قائلا:

«ولعلّ أهمّ بحث ظهر في هذا الموضوع المقال القيّم الذي نشره عبد الرحمن الحاج صالح بعنوان النحو العربيّ ومنطق أرسطو حيث تتبّع أطوار النظريّة القائلة بتأثّر النحو العربيّ بالمنطق ومواقف الدارسين منها عربا ومستشرقين، وتناول حجج ميركس حجّة حجّة، لتفنيدها بالبرهان العقليّ أو بالرجوع إلى محتوى بعض مؤلّفات أرسطو» (المهيري، 1993 ب: 86).

بل إنّ تواضع الباحث وسعيه بين الحين والحين إلى تمتين عرى الصلة بعدد من أهل الاختصاص، جعلاه في موطنين يُقلّل من شأن جهده، ليرفع في المقابل من قيمة المقال المذكور. فقد اعتبر المهيري في موطن أوّل عمله مجرّد خواطر، قائلا:

«وإنّا إذ نعود إلى هذا الموضوع (...) إنّما لنعبّر عن بعض الخواطر في المنهج المتوخّى في عرضها وتأييدها» (المهيري، 1993 ب: 86).

واعتبره في موطن ثان مجرّد ملاحظات عامّة لا تُغني عن التفاصيل الواردة في المقال المُشاد به. قائلا:

«إنّما نكتفي ببعض الملاحظات في شأن المنهج المتوخّى عند الدارسين الذين سعوا إلى تدعيم قولهم بالحجّة. ونحيل للمزيد من التفصيل في شأن آراء ميركس إلى فصل عبد الرحمن الحاج صالح المذكور» (المهيري، 1993 ب: 88).

من الواضح إذن أنّ الباحث حريص على إيجاد قاعدة مشتركة بينه وبين تلك «الجماعة من الباحثين» كي ينسب مقاله إليهم ويُضيف جهده-في التصدّي لآراء ميركس-إلى جهودهم. وهو أيضا حريص على أن يوثّق عرى الصلة بينه وبين بالقارئ. وقد تجلّى ذلك الحرص في مواطن لعلّ من أبرزها ذلك الموطن الذي قدّم

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

فيه الباحث نماذج من تعريف النحاة أقسام الكلام العربيّ، ليستشعر على إثر ذلك حاجة القارئ لجملة من المعلومات يفهم في ضوئها كيف أنّ كثيرا من النحاة القدماء تخلّصوا من المنطق عندما عرّفوا أقسام الكلام، وكيف يقوم ذلك دليلا على أنّ النحو العربيّ لم ينشأ من رحم المنطق.

فرغبة الباحث في التضامن مع قارئه هي التي دفعته إلى أن يسوق -في مرحلة أولى وعلى سبيل الإيضاح- نماذج من تعاريف النحاة أقسام الكلام العربيّ، وأن يقدّم- في مرحلة ثانية وفيما يشبه الاستطراد السريع- جملة من المعلومات تتعلّق بمنهج الدراسات اللّغويّة الحديثة في تعريف الوحدات اللّغويّة تعريفا كفّ أصحابه عن الاستناد إلى مقاييس ذهنيّة ومنطقيّة، وصاروا يحتكمون إلى سياق الكلام وعلاقة الوحدة الكلاميّة بما يجاورها من وحدات. يقول الباحث:

«ولعلّه تحسن الإشارة هنا سريعا إلى ما حدث في عصرنا من تطوّر في وصف اللّغات نتيجة السعي إلى تخليص النحو من الاعتبارات المنطقيّة والذهنيّة والنفسيّة. فلقد أفضت الدراسات الحديثة إلى حصر المعطيات اللغويّة في حقيقتها اللّفظيّة (...). فالوحدة الكلاميّة لا تعرّف باعتبار معناها، وإنّما بالاعتماد على ما يمكن أن يرد قبلها أو بعدها في سلسلة الكلام. (...). لا شكّ في أنّ ما أوردناه من تعاريف لأقسام الكلام يدلّ على شعور جماعة من النحاة بأهمّية المقاييس المستمدّة من سياق الكلام (...) كما يمكن أن نستنتج منه أنّه لو تولّد النحو العربيّ عن المنطق، لما تسنّى للنحاة العرب الاهتداء إلى مثل هذه التعاريف والتمييز بين ما هو من قبيل المنطق وما هو مستمدّ من خصائص اللّغة» (المهيري، 1993 ب: 96).

فما من شكّ عندنا في أنّ جملة المعطيات التي قدّمها الباحث بشأن ما طرأ على الدراسات اللّغويّة الحديثة من تطوّر في وصف وحدات الكلام، تنخرط في إطار سعيه إلى ادّعاء أرضيّة مشتركة بينه وبين القارئ وتوفير قاعدة من المعلومات تساعد هذا القارئ على أن يتابع الباحث في ملاحظاته واستنتاجاته، ويفهم بدون عناء ما يصعب استيعابُه من أفكار لو لم تتوفّر تلك القاعدة من المعلومات التي حرص الباحث -في نطاق احترام قارئه- على أن يوفّرها له وعلى أن يكون التذكير بها سريعا لا يُثقل كاهل المقال، ولا يدخل القارئ في متاهات قد لا يعرف كيف يخرج منها، ولا يستشعر من ورائها استنقاصا له ولزاده اللّغويّ الحديث.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

ب- استراتيجيّات التأدّب السلبيّ:

من الطبيعيّ أن تستأثر استراتيجيّات التأدّب السلبي بالنصيب الأوفر في مقال مداره على عمل لغويّ من صنْو تلك الأعمال التي تهدّد ماء وجه القارئ الإيجابيّ، نعني بذلك نقد الباحث أطروحة المستشرق ميركس القائلة بتأثّر النحو العربيّ منذ بداياته بالمنطق اليونانيّ. فالدور الأساسيّ لهذه الاستراتيجيّات الحدّ من ضراوة ذلك النقد، حتّى لا يبدو رفض الباحث هذا التوجّه في التأريخ للنحو العربيّ قاطعا، ولا يفهم القارئ أنّ المهيري يقدّم الموقف الذي تبنّاه والزعم الذي زعمه وبسطه في آخر المقال (المهيري، 1993 ب: 98-99) على أنّه الحقيقة عينها، وما سواها باطل. فالتعابير المستخدمة بمختلف أنواعها والمندرجة في باب التأدّب السلبيّ ليست من الحشو والزوائد، بل الغاية منها حفظ ماء وجه الباحث نفسه وماء وجه الجماعة الخطابيّة الموسّعة التي يمكن أن يوجد من بينها مَن لا يزال على رأي ميركس، أو مَن ربّما تُسعفه الأدلّة في يوم من الأيام، ليبيّن بالدليل القاطع بطلان رأي المهيري وصحّة الرأي الذي استضعفه.

- **أسلوب التلطيف:**

يمكن القول بأنّ التلطيف من أبرز الأساليب المستخدمة في هذا النوع من التأدّب، سواء تعلّق الأمر ببسط الباحث مزاعمه وأفكاره أو بطعنه في مزاعم مخالفيه وعلى رأسهم ميركس. نعم، لقد شاعت عبارات عديدة ومتنوّعة تدخل في باب التلطيف استخدمها الباحث لكي يكون في نجوة من النقد الذي يمكن أن يوجّه إليه، وتُسهم كذلك في إبقاء العلاقة بينه وبين أهل الاختصاص متينة، حتّى في الحالات التي يُظهر فيها اختلافا مع غيره من المتخصّصين. فتلك العبارات تدخل في باب الحذر والحيطة، وتحقّق ذلك التوازن المنشود في الكتابة الأكاديميّة بين آراء شخصيّة يريد الباحث أن يعبّر عنها ويصدع بها من جهة، وعلاقة بالقارئ وبأهل الاختصاص يحرص على ألاّ تهتزّ وتفسد، جرّاء تلك الآراء من جهة أخرى.

والحقّ أنّ حذر الباحث في التعبير عن وجهة نظره ومزاعمه، بدأ يظهر من عنوان البحث. وما اختياره عبارة «خواطر» في قوله «خواطر حول علاقة النحو العربيّ بالمنطق واللّغة»، إلاّ استخدام مقصود يوحي به للقارئ بأنّ الموقف الذي سيعبّر

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

عنه في المقال هو أقرب إلى الخواطر التي يمكن أن يعتريها الشكّ والظنون، والتي لا يزعم صاحبها امتلاك الحقيقة، ولا يدّعي فيها القول الفصل في مسألة شائكة، شأن مسألة علاقة النحو العربيّ بالمنطق اليونانيّ. والتلطيف أسلوب واظب عليه الباحث في جلّ الأعمال اللّغويّة التي كان ينجزها ويستشعر خطرها والتي تدخل في باب التعبير عن الرأي تعبيرا تجنّب فيه الباحث الظهور في مظهر الواثق ممّا يقول والمطمئنّ كلّ الاطمئنان لما يقرّر. وممّا يدخل في هذا الاستخدام قول الباحث:

«والذي يبدو الآن ثابتا هو أنّ أقدم ما ترجم من مؤلّفات أرسطو لم ينقل إلى العربيّة قبل منتصف القرن الثاني الهجريّ وأنّ المترجم ليس عبد الله بن المقفّع كما تذكر بعض المصادر وإنّما ابنه محمّد المتوفّى بعد سنة 150 من الهجرة» (المهيري، 1993 ب: 90).

فحذر الباحث وسعيه إلى التنسيب واضحان في هذا الشاهد. واستخدام التلطيف وسيلةٌ تضمن للباحث بألاّ يكون عرضة للنقد، عندما يعبّر عن رأيه في مسألة لا يملك فيها أحد أدلّة قاطعة، ولا يسع الدارس-وهو يخوّض فيها-إلاّ أن يحدس ويُرجّح رأيا على آخر.

ولم يجد الباحث بدّا من تجنّب الحسم في موطن لاحق اعتبر فيه عبد الله بن إسحاق الحضرمي أقدم من يُعتبر نحويّا. وقد كان استخدام البنية الشرطيّة طريقةً نسّب بها الباحث هذا الحكم الذي يتعلّق بحقبةٍ النصوصُ فيها شحيحة والآراء حولها مختلفة. يقول الباحث:

«وإذا اعتبرنا أنّ النحو العربيّ لم يوضع دفعة واحدة على يد الخليل وسيبويه، ولم ينشأ مكتملا في ظرف عقدين أو ثلاثة، وإنّما اقتضى بناء صرحه ما لا يقلّ عن قرن كامل، بدا لنا أنّ المحاولات الأولى يرجع عهدها إلى العقود الأخيرة من القرن الأوّل الهجريّ. وفعلا، فممّا هو اليوم موضوع اتّفاق أنّ أقدم مَن يُعتبر نحويّا بأتمّ معنى الكلمة عبد الله بن إسحاق الحضرميّ المتوفّى سنة 177 هـ» (المهيري، 1993 ب: 90).

والحقّ أنّ للتلطيف في هذا الشاهد أكثر من مسلك. فغير خاف أنّ استخدام البنية الشرطيّة طريقة ذكيّة يُخرج بها الباحث الحكم الذي يعبّر عنه من كونه مجرّد

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

حكم شخصيّ غير مبرّر إلى نتيجة معقولة ومبرّرة لاستنادها إلى مقدّمات. وحتّى هذه النتيجة لم يشأ الباحث أن يقدّمها عارية، بل تلطّف في بسطها مستخدما عبارة «بدا لنا». ومن مسالك التلطيف كذلك تذكير الباحث القارئ بأنّ الرأي الذي يعبّر عنه، لهو موضوع اتّفاق بين الدارسين. على هذا النحو يُحكم الباحث صناعة التعبير عن مزاعمه، مُضفيا على حكمه–في مناسبة أولى–قدرا من المعقوليّة بفضل استخدام بنية الشرط، ومُخرجا إيّاه–في مناسبة ثانية–من دائرة الحكم الفرديّ المختلف فيه إلى نطاق الرأي الجماعيّ المتّفق عليه.

وما من شكّ في أنّ مثل هذه التعابير الملطّفة وغيرها كثير في ثنايا المقال، ترسمُ صورة للباحث من أبرز ملامحها التواضع والشكّ البنّاء الذي يخامر الباحث، ويصاحبه في كلّ مراحل البحث، ويجعله لا يطمئنّ إلى النتائج التي يخلص إليها اطمئنان أولئك الذين ساروا خلف ميركس وردّدوا رأيه ولم يشكّوا البتّة فيه، والذين أشار إليهم الباحث في مطلع بحثه قائلا:

«فمنذ أن أذاع أ. ميركس (Merx) آراءه حول هذا الموضوع في المحاضرة التي ألقاها بالمعهد المصريّ مقتفيا أثر قويدي (I. Guidi)، مستعرضا الحجج الدالّة في نظره على مدى ما نقله النحاة العرب من الفلسفة اليونانيّة إلى فنّهم، ما انفكّ جلّ من تحدّثوا عن النحو العربيّ يردّدون هذه الآراء لا يكاد الشكّ يُخامرهم في سدادها، ولا في تصويرها لحقيقة معطيات النحو العربيّ» (المهيري، 1993 ب: 85 انظر أيضا ص: 85 و ص: 88).

ومثلما جاء تعبير الباحث عن موقفه الشخصيّ في صيغ فيها كثير من الحيطة والتلطّف على نحو يُرسّخ الشعور عند القارئ بأنّ ما يُفصح عنه هو أقرب إلى الآراء والخواطر منه إلى الحقائق المسلّم بها، ومن ثمّ يعزّز صورة الباحث الذي يتحلّى بالتواضع، ويتّخذ الشكّ طريقا إلى فهم الظواهر والكشف عن العوامل المحرّكة لها، مثلما جاء التعبير عن الموقف الشخصيّ على هذا النحو، صاحب الحذرُ الباحثَ في انتقاده موقف هؤلاء الدارسين الذين زعموا–تأثّرا بأقوال ميركس–أنّ النحو العربي نشأ على عاتق المنطق اليونانيّ. ومن أمثلة ذلك الطريقة التي طعن بها الباحث في نوع من الحجج استدلّ بها كلّ من ميركس وإبراهيم مدكور على تأثّر النحو العربي بالفكر اليوناني. يقول الباحث:

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

«ومن العسير-في نظرنا-أن نعتبر مثل هذه الإرشادات من شأنها أن تكوّن حججا بتأثّر النحو العربي بالتفكر اليونانيّ فضلا عن اكتفاء النحاة بتبنّي المعطيات الفلسفيّة اليونانيّة. فلئن كان من المسلّم به أنّ البيئة الثقافيّة البصريّة لم تكن خالية من عناصر غير عربيّة وأنّ أصداء ثقافات مختلفة من فارسيّة ويونانيّة وهنديّة كانت تتردّد فيها، فليس لدينا ما يُثبت أنّ مؤلّفات يونانيّة معيّنة كانت تُدرس فيها خلال القرنين الأوّل والثاني من الهجرة دراسة تمكّن من اقتباس معطياتها وتوطينها في المؤلّفات العربيّة» (المهيري، 1993 ب: 0, 9)

فغير خافٍ أنّ مثل هذه العبارات الملطّفة تحدّ من ضراوة النقد الموجّه إلى كلٍّ من ميركس و مدكور. ووجهُ التلطيف في ذلك يتمثّل في مرحلة أولى في تحويل العمل اللّغويّ المنجز من رفض الرأي المخالف رفضا مطلقا ونفي صحّته نفيا باتّا إلى مجرّد عمل يُقلّل فيه الباحث من نصيب ذلك الرأي من الصحّة، مُستبعدا أن تكون الحجج التي تُسنده كافية للتدليل على صوابه والإقناع بوجاهته. أمّا في المرحلة الثانية فمدار التلطيف على بناء الكلام على نحو يجعله قائما على حركتين اثنتين: حركة أولى («فلئن كان من المسلّم به...») يُرخي الباحث فيها العنان لمخالفه في الرأي، طامسا كلّ مظاهر الاختلاف، وحركة ثانية («فليس لدينا ما يُثبت أنّ...») يعبّر فيها الباحث عن رفضه تعبيرا يتّضح من خلاله أنّ الحركة الأولى كانت مجرّد تمهيد للثانية، وأنّ ادّعاء الباحث الاتّفاق مع مَن مخالفه في الرأي ما هو إلاّ تهيئة لإعلان الخلاف والتشكيك في صواب رأي ذلك المخالف.

- **الأبنية المبهمة:**

استخدم الباحث هذه الأبنية في مواطن متعدّدة الجامعُ بينها إتيان أعمال لغويّة تنطوي في صلبها على مخاطر من شأنها أن تهدّد ماء وجه القارئ. وتلك الأعمال إمّا متعلّقة بمزاعم الباحث وبما يُبديه من ملاحظات ويخلص إليه من استنتاجات، وإمّا دائرة عل نقد آراء ميركس والقائلين برأيه. ومن أبرز ما وقفنا عليه من هذه الأبنية:

-**الاستعاضة عن ضمير المتكلّم بطرف مبهم**: وهو أسلوب من أساليب التأدّب السلبيّ استخدمه المهيري عندما أنجز عملا لغويّا أثبت فيه تأثّر النحو العربيّ بالمنطق في مرحلة متأخّرة، قائلا:

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

«فكلُّ مَن مارس المؤلّفات المستوعبة لمختلف النظريّات، واطّلع على كتب الأصول وتمعّن في طرق الاحتجاج، سرعان ما يقتنع بأنّها لا تخلو من طابع منطقيّ» (المهيري، 1993 ب: 92).

فليس يخفى أنّ الفاعل الحقيقيّ لهذا العمل اللّغويّ هو الباحث عبد القادر المهيري، وليس أدلّ على ذلك من إحالته مباشرة بعد هذا الشاهد على أطروحته، قائلا في الهامش: «انظر دراستنا بالفرنسيّة حول نظريّات ابن جنّي النحويّة، نسخة مرقونة، ص 61-63». ولكنّ الباحث آثر إسناد هذا العمل الذي يمكن أن يهدّد ماء وجه المخالفين إلى كلّ فرد من أفراد الجماعة الخطابيّة له معرفة دقيقة بالتراث النحويّ. وهي طريقة استطاع بها الباحث أن يجرّد هذا الزعم من طابع الغرابة ومفعول الصدمة، وأن يجعله في متناول كلّ فرد من أهل الاختصاص.

وتنصّلُ الباحث من مسؤوليّة العمل اللّغويّ الذي ينجزه بإلقائه على عاتق جهة مبهمة، يظهر في الاستنتاج الذي خلص إليه على إثر تقديمه نماذج من تعريف القدامى أقسام الكلام والذي بدأه بقوله:

«إنّ إمعان النظر في ما خلّفه لنا النحاة من مؤلّفات يكشف-حسب ما نعتقد-عن أسس منهجيّة مختلفة منها ما يتّسم بطابع منطقيّ لا جدال فيه، ومنها ما هو مستمدّ من المعطيات اللّغويّة لا يراعي إلاّ ما يُلمس في الكلام، ولا يُقيم وزنا إلاّ لما يتضمّنه النصّ» (المهيري، 1993 ب: 89).

فالذي يفسّر في تقديرنا ترك الباحث-في هذا الشاهد-طريق الإيجاز واعتماده هذه البنية المبهمة وهذا المسلك الطويل في التعبير وإقحامه تلك الجملة الاعتراضيّة، طبيعةُ العمل اللّغويّ المنجز من خلال هذه الجملة، نعني بذلك استنتاجا قد لا يُشاطر فيه عدد من الدارسين الباحث، وربّما يُقيم آخرون الدليل على بطلانه. أمّا إذا صحّ هذا الاستنتاج، فسيترتّب عليه-من جملة ما سيترتّب-تضييقٌ لاختيارات الباحثين في كيفيّة قراءة التراث النحويّ وفرضٌ لوجهة نظر الباحث عليهم.

وقد لاذ الباحث ببنية أخرى مبهمة عندما بسط رأيه في مسألة منتهى ما يمكن للباحثين أن يصلوا فيها التخمينُ والافتراضُ، نعني بذلك تحديد معالم طبيعة البيئة والثقافة في القرنين الأوّل والثاني للهجرة. لذلك تحاشى إسناد هذا العمل اللّغويّ الخطر إلى نفسه، واعتمد صيغة مبهمة جاءت على النحو الآتي:

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

«وأقصى ما يمكن أن يُقال هو أنّ ثقافة نحاة القرنين الأوّل والثاني هي ثقافة بصريّة أي ثقافة تكامل فيها النقل والعقل، وتآلفت الرواية والنظر نتيجة التقاء التراث العربيّ بأصداء الثقافات الأجنبيّة» (المهيري، 1993 ب: 91–92).

ومن الأبنية المبهمة التي توارى الباحث وراءها، حتّى يخفّف من حدّة النقد الموجّه إلى عدد من الدارسين ساروا على نهج ميركس قوله:

«ولا يخفى أنّ مثل هذه الأحكام العامّة لا تُقنع إلاّ مَن يكتفي بالرواية حجّة في ميدان المعرفة» (المهيري، 1993 ب: 88).

من الواضح إذن أنّ الباحث عدل–في هذا الشاهد–عن الصيغة المباشرة التي تجمع بين الإيجاز والتكلّم بلسانه في آن معا («لستُ مقتنعا بهذه الأحكام لأنّها تكتفي بالرواية»)، وآثر استخدام صيغة تنطمس فيها كلّ الآثار التي يمكن أن تدلّ على حضوره في الكلام، وتدلّ من ثمّ على أنّه هو موقع هذا العمل اللّغويّ الخطر («لا يخفى أنّ مثل هذه الأحكام العامّة لا تُقنع»).

وقد سلك الباحث المسلك نفسه حين أبدى ملاحظة نقديّة تخصّ منهج أولئك الدارسين المتأثّرين بميركس القائل بأنّ وجود تشابه في المفاهيم وطرق البحث يقود بالضرورة إلى تأثّر طائفة بأخرى. يقول الباحث:

«إنّ أهمّ ما يسترعي الانتباه في هذا المنهج أنّه يقوم على البحث عمّا يوجد في النحو العربيّ من معطيات لها ما يقابلها في منطق أرسطو أو مصطلحات موازية لاصطلاحات يونانيّة مؤدّية لمفاهيم قريبة من مفاهيمها (...) وعلى كلّ فملاحظةُ توازٍ بين منهجين أو قرابة بين طائفتين من المفاهيم، لا تُثبتُ أنّ توازيهما أو القرابة بينهما نتيجة التأثير والتأثّر، إلاّ إذا اعتمدت معطيات إضافيّة من نوع الوثائق التاريخيّة» (المهيري، 1993 ب: 89–90).

– الاستعاضة عن المتكلّم الفاعل بطرف مجهول:

استخدم الباحث هذا الأسلوب عندما اعترض على ادّعاء ميركس القائل بأنّ المقولات المنطقيّة لها أثر واضح في كتاب سيبويه. فبدل أن يقول الباحث: «لا أرى هذا الرأي معقولا»، اختار صيغة مهذّبة أسند فيها هذا العمل اللّغويّ المهدّد ماء وجه فريق من أهل الاختصاص إلى طرف مجهول، قائلا:

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

«فلا يُعقل إذن، إن أمكن لسيبويه أو معاصريه الاطّلاع المباشر على بعض مؤلّفات أرسطو أن يكون لهذه المؤلّفات تأثير سريع يجعلها في ظرف قصير من الزمن شائعة مألوفة إلى درجة أن تُستعمل بدون أن يشكّ مقتبسها في قدرة الناس على فهمها وتمثّلها والاستفادة منها» (المهيري، 1993 ب: 91).

- تحويل المتكلّم من وظيفة الفاعل إلى المفعول به:

استعمل الباحث هذه الصيغة من التلطّف التي تُظهره في مظهر المفعول به أو المدفوع إلى القيام بفعل من الأفعال في مناسبة أولى قائلا:

«كلُّ هذا يحملنا على التساؤل عن مدى وجاهة النظريّة القائلة بتأثّر النحو العربيّ في طور نشأته بالتراث اليونانيّ وخاصّة بالمنطق الأرسطيّ» (المهيري، 1993 ب: 91).

ولعلّ الطريف في هذا الاستعمال أنّ الباحث جمع -في هذا الشاهد- بين وجهين من وجوه التلطّف: التخلّي عن الفاعليّة وتقمّص دور المفعول به، وتحويل مدار العمل اللّغويّ من الرفض الصريح والنقد اللاّذع إلى مجرّد التساؤل عن مدى وجاهة الرأي المخالف من جهة أخرى.

أمّا المناسبة الثانية التي استعمل فيها الباحث هذا الأسلوب، فتعلّقت بالزعم الذي قام عليه البحث والذي ذكّر به الباحث في خاتمة مقاله، قائلا:

«وهذا ما يجعلنا نذهب إلى أنّ البحث اللّغويّ عند العرب انطلق من مصدر لغويّ تدفعه روح لغويّة، وتحدوه رغبة النحاة في وضع نظام شامل تندرج ضمنه كلّ المعطيات مهما تباينت وتشعّبت. ثمّ تفرّع هذا البحث حسب اتّجاهين مختلفين: اتّجاه لغويّ لم يحِدْ عمّا ذهب إليه الأوائل، إلاّ لتوضيح الأسس المنهجيّة، واتّجاه منطقيّ تولّد عن الخلاف بين المدارس النحويّة، وتغذّى من ترجمة التراث اليونانيّ، وتفاقم أمره، عندما تسرّبت مقوّمات هذا التراث في الثقافة العربيّة الإسلاميّة» (المهيري، 1993 ب: 98-99).

هذه أبرز أساليب التأدّب التي وقفنا عليها، ونحن نقلّب النظر في هذا المقال الذي حرّره عبد القادر المهيري. والذي يمكن الخلوص إليه أنّ تلك الأساليب لا يمكن أن نفهم مواظبة الباحث على استخدامها وقدرته على التفنّن في توظيفها، إلاّ إذا استحضرنا ذلك البعد التفاعليّ الذي بدا لنا الباحث حريصا على وجوده في مقاله

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

والذي بفضله استطاع أن يُبطل مفعول الألغام الكامنة في العمل اللّغويّ الذي قام عليه مقاله، نعني بذلك تقويض الأسس التي قام عليها زعم المستشرق ميركس القائل بأنّ المنطق اليونانيّ أثّر في النحو العربيّ ساعة نشأته.

نعم، لقد كان للتأدّب السلبيّ بمختلف أنواعه وصيغه دور مهمّ في تجنّب الباحث مواجهة مخالفيه في الرأي مواجهة صريحة، وفي تمكينه من الطعن في ذلك الزعم على نحو لا تهيمن عليه مظاهر الخلاف ولا تؤول فيه العلاقة بين الباحث ومَن ينقدهم إلى القطيعة، بفضل الاستخدام المكثّف لصيغ التلطيف وللأبنية المبهمة. وعلى قدر ما وجدنا الباحث يتلطّف في المواطن التي يسعى فيها إلى تفنيد زعم ميركس وأتباعه، ألفيناه حذرا وميّالا إلى التنسيب في إثبات وجهة نظره التي خلص إليها في آخر المقال، بعد أن مهّد لها في ثناياه بجملة من الأعمال اللّغويّة الخطرة التي لم يألُ جهدا في الحدّ من ضراوتها، حتّى يحفظ هذه المرّة وجهه هو، ومن ثمّ لا يكون عرضة للنقد في حال ما جاء دارسٌ وخطّأ الباحث في ملاحظة أبداها أو استنتاج استنتجه أو فكرة عبّر عنها.

ولم تقف مظاهر التفاعل عند هذا الحدّ، لا، ولم تقتصر على هذا النوع من القرّاء المتمثّل في فريق من أهل الاختصاص يتزعّمهم ميركس، بل جاوزت ذلك إلى فريق آخر هو أيضا من أهل الاختصاص أشار إليه بعبارة «جماعة من الباحثين»، وذكر منه الباحث الجزائريّ عبد الرحمن الحاج صالح. وقد كشفت لنا تعابير التأدّب الإيجابيّ عن لون آخر من التفاعل مع هذه الجماعة التي سبق لأفرادها مناقشة زعم ميركس ومقابلته بالرفض والتي وجد الباحث نفسه بحكم اتّفاقه معها يسعى إلى تعزيز الانتماء إليها وتوسيع رقعة المشترك بينه وبين أفرادها، مُستعينا في ذلك بصيغ متنوّعة من استراتيجيّات التأدّب الإيجابيّ التي استخدم منها صيغا أخرى استحضر بها القارئ العامّ، ليكون قريبا منه، متماهيا معه، متابعا لأفكاره وموافقا لرؤاه.

وما من شكّ عندنا في أنّ قدرة الباحث على إدارة هذا الجانب المهمّ من البحث وحرصه على أن تتّسم كتابته بقدر لا بأس به من التفاعل الإيجابيّ مع مختلف قرّائه، ساهما في رسم معالم صورة إيجابيّة له من أبرز ملامحها الجمعُ بين التواضع والحذر عند بسط المزاعم أو نقد الرأي المخالف، على نحو يُرسّخ قدمه في الاختصاص ويجعل منه اسما يكنّ له المتخصّصون في النحو العربيّ والتراث اللّغويّ عموما الاحترام والتقدير. وما من شكّ عندنا أيضا في أنّ الطابع السجاليّ الذي لا يمكن

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

لاستراتيجيّات التأدّب أن تمحو أثره في هذا المقال، هو الذي جعل هذه الصورة التي قدَّ المهيري ملامحها من صيغ التأدّب تُبنى على أنقاض تلك الصورة السلبيّة والمنفّرة التي تراءى بها «الخصوم» للباحث والتي مِن أبرز معالمها الاعتدادُ بالرأي والوثوقُ بالفكرة كأنّها الحقيقة لا يأتيها الشكّ من بين يديها ولا من خلفها، والتي عمد الباحث في مطلع المقال إلى التذكير بها قائلا:

«من الآراء التي شاعت بين المهتمّين بالنحو العربيّ واعتبرها الكثير منهم حقائق لا تحتمل النقاش، أنّ هذا النحو مدين للفلسفة اليونانيّة بأهمّ معطياته» (المهيري، 1993 ب: 85).

وما من شكّ عندنا كذلك في أنّ لتلك الصورة التي بناها المهيري لنفسه والتي صُنعت موادّها ولبناتها من صيغ التأدّب وتعابيره والتي أظهرته للقارئ باحثا يجمع بين الحذر والتواضع، لا شكّ في أنّ لتلك الصورة دورا في إقناع القارئ بوجهة نظر الباحث. وهو ما يؤكّد لنا وجاهة ذلك التصوّر الذي تبنّيناه في بحث لنا قائلين: «فهذا التصوّر لا يجرّد الكتابة الأكاديميّة من بعد إقناعيّ. ولكنّه يرهن تحقّق الإقناع بمدى قدرة الباحث على الاستجابة لأعراف تلك الكتابة ومواصفاتها والتي يُعدّ التواضع مِن أبرزها. فلا شيء يضمن لأفكار الباحث وادّعاءاته القبول والرواج في الدوائر العلميّة مثل إظهار التواضع ساعة التعبير عن تلك الأفكار وعرض تلك الادّعاءات (عبيد، 2010: 167).

المصادر والمراجع

I- المصادر: المقالات والكتب التي استقينا منها شواهد على التأدّب اللّغويّ

– **ابن عبد الجليل (المنصف)**: «المسلم المعاصر دفاعا عن حقّ الخلف»، ضمن كتاب «المسلم في التاريخ»، مطبعة دار النجاح، الدار البيضاء، 1998.دار نهى للطباعة والنشر بصفاقس، تونس، 2012.

– **ابن عبد الجليل (المنصف)**: «الفرقة الهامشيّة في الإسلام: بحث في تكوّن السنّية الإسلاميّة ونشأة الفرقة الهامشيّة وسيادتها واستمرارها »، مركز النشر الجامعيّ بتونس 2001.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

– **الجطلاوي (الهادي)**: «قضايا اللّغة في كتب التفسير»، منشورات كلّية الآداب سوسة ودار محمّد علي الحامّي، تونس، 1998.

– **الجوّة (أحمد)**: «المطوّلة في الشعر العربيّ الحديث»، مطبعة التسفير الفنّي بصفاقس، تونس، 2011.

–**الجوّة (أحمد)**: «الإيديولوجيا في الشعر العربيّ المعاصر»، مطبعة التسفير الفنّي بصفاقس، تونس، 2017.

–**حسين (طه)**: «في الأدب الجاهليّ»، ط، 16، دار المعارف، القاهرة، 1989.

–**الخبو(محمّد)**: «مداخل إلى الخطاب الإحاليّ في الرواية»، دار نهى للطباعة والنشر بصفاقس، تونس، 2006.

– **الخبو(محمّد)**: «نظر في نظر في القصص: مداخل إلى سرديّات استدلاليّة»، دار نهى للطباعة والنشر بصفاقس، تونس، 2012 أ.

– **الخبو(محمّد)**: «أقاصيص تجري في غر مجراها»، دار نهى للطباعة والنشر بصفاقس، تونس، 2012 ب.

– **السماوي (أحمد)**: «المقال الأدبيّ»، مسكلياني للنشر ، تونس، 2008.

– **الشاوش (محمّد)**: «أصول تحليل الخطاب في النظريّة النحويّة العربيّة»، منشورات كلّية الآداب منّوبة، تونس، 2002.

– **الشرفي (عبد المجيد)**: « لبنات دار الجنوب للنشر، تونس 1994.

– **صمّود (حمّادي)**: «الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة»، الدار التونسيّة للنشر، تونس، 1988.

– **صولة (عبد الله)**: «في نظريّة الطراز الأصليّة في دراسة المعنى»، حوليّات الجامعة التونسيّة، العدد: 45، 2001.

– **العجيمي (محمّد الناصر)**: «النقد العربيّ الحديث ومدارس النقد الغربيّة «، منشورات كلّية الآداب سوسة ودار محمّد علي الحامّي، تونس، 1998.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجاريا

- **القاضي (محمّد)**: «الخبر في الأدب العربيّ: دراسة في السرديّة العربيّة»، منشورات كلّية الآداب منّوبة، تونس، 1998.

- **قوبعة (محمّد)**: «الشعر وروح العصر: بحث في نشأة الفكرة»، حوليّات الجامعة التونسيّة، العدد: 45، 2001.

- **الكشو (صالح)**: «مظاهر التعريف في العربيّة»، منشورات كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس، تونس، 1997.

- **المسدّي (عبد السلام)**: «اللّسانيّات وأسسها المعرفيّة»، مؤسّسات عبد الكريم عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، 1986.

- **المسدّي (عبد السلام)**: «مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات»، مؤسّسات عبد الكريم عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، 1997.

- **المهيري (عبد القادر)**: «أعلام وآثار في التراث اللّغويّ»، دار الجنوب للنشر تونس، 1993 أ.

- **المهيري (عبد القادر)**: «نظرات في التراث اللّغويّ»، دار الغرب الإسلاميّ، لبنان، 1993 ب.

- **المنّاعي (مبروك)**: «المال والشعر: بحث في آليّات الإبداع الشعريّ عند العرب من الجاهليّة إلى نهاية القرن الثالث»، منشورات كلّية الآداب منّوبة، تونس، 1998.

- **الواد (حسين)**: «المتنبّي والتجربة الجماليّة عند العرب»، منشورات المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر ودار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1991.

٢- المراجع:

أ- المراجع العربيّة

- **عبيد (حاتم)**: «نظريّة التأدّب في اللّسانيّات التداوليّة»، عالم الفكر، عدد:1، المجلّد: 43، ديسمبر .2014

- **عبيد (حاتم)**: «حضور الذات في الخطاب الجامعيّ من خلال ظاهرة التلطيف»: نشر في العدد 57 من مجلّة «حوليّات الجامعة التونسيّة»، 2012.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

- **عبيد (حاتم)**: «التشكّل الخطابيّ لهويّة المؤلّف في الكتابة الجامعيّة من خلال استعمال ضمير المتكلّم»، مجلّة فصول ، عدد 77، 2010.

ب- المراجع الأجنبيّة :

- Brown, Penelope and Stephen Levinson, (1987): Politeness: Some universals in language usage. Cambridge University Press.

-Hunston, S. (1993): Evaluation and ideology in scientific writing. In M. Ghadessy (ed.), Register analysis: theory and practice , London: Pinter.

- Hyland, K. (1997): Scientific claims and community values: articulating an academic culture. Language and Communication, 16 (1).

-Myers, Greg. (1989): the pragmatics of politeness in scientific articles. Applied Linguistics, Vol.10, No.1.

- Myers, Greg. (1992): "In this paper we report...": speech acts and scientific facts. Journal of Pragmatics, 17.

-Scollon, R.& Wong Scollon (1995): Intercultural communication: A discourse approach. Oxford: Blackwell.

- Samraj, B. (2002): Introductions in research articles: variations across disciplines. English for Specific Purposes, 21.

- **Swales, J. (1990):** Genre analysis: English in academic and research settings. Cambridge: Cambridge University Press.